اسم الدرس : تفسير سورة الأعراف (٢١) | الآيات [١٩١ : ٢٠٦]

تصنيف الدرس : مجلس تفسير

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته

بسم الله والصلاة والسلام على رسول الله ﷺ، نستكمل بإذن الله عزَّ وجلَّ مجالس تدارس سورة الأعراف، أسأل الله عزَّ وجلَّ أن يتم لنا على خير، غالبًا هذا آخر مجلس من مجالس سورة الأعراف. أسأل الله عزَّ وجلَّ أن يتقبل منا، وأن يجعلنا جميعًا من أهل القرآن الذين هم أهله وخاصته سبحانه وتعالى.

❖ختام سورة الأعراف:

كنا توقفنا عند قوله سبحانه وتعالى ﴿فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ عَمَّا يُشۡرِكُونَ * أَيُشۡرِكُونَ مَا لَا يَخۡلُقُ شَيۡـٔٗا وَهُمۡ يُخۡلَقُونَ * وَلَا يَسۡتَطِيعُونَ لَهُمۡ نَصۡرٗا وَلَآ أَنفُسَهُمۡ يَنصُرُونَ * وَإِن تَدۡعُوهُمۡ إِلَى ٱلۡهُدَىٰ لَا يَتَّبِعُوكُمۡۚ سَوَآءٌ عَلَيۡكُمۡ أَدَعَوۡتُمُوهُمۡ أَمۡ أَنتُمۡ صَٰمِتُونَ * إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ عِبَادٌ أَمۡثَالُكُمۡۖ فَٱدۡعُوهُمۡ فَلۡيَسۡتَجِيبُواْ لَكُمۡ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ﴾[الأعراف ١٩٠-١٩٤]، تقريبًا من هذه الآيات كأنه بدأ ختام سورة الأعراف، آخر قصة ذُكرت سواء كان المقصد آدم وحواء أو جنس من بني آدم الذين يكفرون بنعمة الله عزَّ وجلَّ بعدما يحصلون عليها، وذكرنا الاختلاف في المرة الماضية، وختام الآية ﴿فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ عَمَّا يُشۡرِكُونَ﴾[الأعراف ١٩٠] تجد غالبًا من هنا، لا شك أن قضية تحديد الآية التي يبدأ منها الختام هذا ليس أمرًا توقيفيًا، بل يختلف فيه، فالبعض يرى أن هنا يوجد مثلًا منظومة من الأوامر والنواهي والتوجيهات في آخر السورة.

لكن نجد أن جو ختام سورة الأعراف مليء بالتحدي، قوة، تمسك بالقرآن، القيام بعد الوقوع في الزلة، البعد عن الشيطان، تجد عدم اتخاذ أولياء من دون الله، تمسك بمنهج الله، قوة العبادة بالتسبيح والذكر، هذا هو الجو الختامي لسورة الأعراف. وكأن المطلوب منك بعد مدارسة سورة الأعراف وقراءة سورة الأعراف ولا سيما في قيام الليل: أن تخرج بهذه الروح، إذا لم تخرج بهذه الروح، قوة التحدي والثقة في الله وتمني أن يتولاك الله عزَّ وجلَّ، أن يتولاك الله سبحانه وتعالى، وأن ينصرك وأن تتمسك بكتابه وأن توقن بأن القرآن فيه بصائر وهدى ورحمة، فإذا استمعت أو إذا قُرئ القرآن تستمع له وتنصت، وإذا وقعت منك الزلة ومَسَّك طائف من الشيطان تقوم بعد هذه الزلة، هذه الروح هي التي لا بد أن يخرج بها الإنسان من سورة الأعراف.

الناظر في أول آية من سورة الأعراف بعد الحروف المقطعة يجد أن الله عزَّ وجلَّ يقول ﴿كِتَٰبٌ أُنزِلَ إِلَيۡكَ فَلَا يَكُن فِي صَدۡرِكَ حَرَجٞ﴾[الأعراف ٢] بداية السورة تعالج قضية الحرج في صدر الداعية، ختام السورة يوضح أن هذا الحرج تحوّل إلى قوة وتحدي ويقين ومواجهة ومجابهة لأهل الباطل، انظر كيف يُعالج القرآن

الداخل إليه الذي يترك نفسه لكتاب الله ليعالجه، يتغير؛ لذلك كما في الأثر المروي عن ابن مسعود "دُر مع القرآن حيث دار" أن تترك نفسك للقرآن بعيدًا عن فهم موضوع السورة وتفاصيل السورة، الذي يترك نفسه لآيات القرآن تنزل وتطأ على قلبه وعقله سوف يتغير ويخرج بهذه المعاني.

* فمثلًا الذي يدخل لسورة الروم ويترك نفسه مع سورة الروم، يُفاجأ أنه يخرج في آخر آية من سورة الروم ﴿فَٱصۡبِرۡ إِنَّ وَعۡدَ ٱللَّهِ حَقّٞ﴾ وتكررت كلمة الوعد في السورة ﴿إِنَّ وَعۡدَ ٱللَّهِ حَقّٞۖ وَلَا يَسۡتَخِفَّنَّكَ ٱلَّذِينَ لَا يُوقِنُونَ﴾[الروم ٦٠] تخرج من سورة الروم وأنت على يقين، وأنت غير مُستَخَف.

* الذي يخرج من سورة الكهف بعد هذه الفتن العظيمة في سورة الكهف، يخرج لا يريد حولًا عن الفردوس ﴿لَا يَبۡغُونَ عَنۡهَا حِوَلٗا﴾[الكهف ١٠٨]، يتمسك بكلمات الله، يُوقن بكلمات الله القدرية كما يتمسك بكلماته الشرعية.

فالذي يُسلِّم نفسه وعقله للقرآن لا ينازع –كما قال الرسول ﷺ– ويقرأ القرآن في الصلاة ، قال: (ما لي أُنَازِع)[١] لماذا يقرأ الناس أثناء القراءة... وإن كان هذا معنى شرعيًا آخر، لكن أقصد أن هناك ناس لا تترك نفسها للقرآن، يُنازع معاني القرآن، لا يترك القرآن يغير فيه، كل موضوع يضع أمامه شبهات وأسئلة لا يترك نفسه لتلقي حقائق القرآن.

فالذي يترك نفسه لسورة الأعراف، ويشاهد هذه المشاهد العظيمة من وقوف أهل الأعراف وترددهم في الدنيا كذلك ترددوا في الآخرة، أيضًا الذين ترددوا في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، يشاهد وقوف موسى –عليه السلام– أمام فرعون وملئه وأمام السحرة ويسمع بيقين قول الله _سبحانه وتعالى_ ﴿وَدَمَّرۡنَا مَا كَانَ يَصۡنَعُ فِرۡعَوۡنُ وَقَوۡمُهُۥ وَمَا كَانُواْ يَعۡرِشُونَ﴾[الأعراف ١٣٧] الذي يتلقى كل هذه الحقائق في السورة يخرج بهذه المعاني، هذا الختام سورة الأعراف.

إذًا هذا الختام يناسب نفسية المتلقي حقيقةً لسورة الأعراف، بمعنى ونحن نقرأ الآن ستجد جوًا من التحدي واليقين والثقة في موعود الله وفي كلام الله سبحانه وتعالى؛ هذا لمن تلقَّى السورة حقيقةً؛ لذلك أحيانًا الإنسان عندما يقرأ كتابًا – مع الفارق الرهيب– عندما يقرأ كتابًا عاديًا ويأتي في ختام الكتاب ويقول لك: أنت تعلمت من الكتاب كذا وكذا وكذا وتفاجأ أنك لم تتعلم هذه الأشياء! هناك خلل إما

---

[١] [عن أبي هريرة]: صلّى لنا رسولُ اللهِ ﷺ صلاةً فجهَر فيها فلمّا انصرَف استقبَل النّاسَ فقال: (هل قرَأ آنفًا منكم أحَدٌ)؟ قالوا: نَعم يا رسولَ اللهِ فقال: (لَأقولُ ما لي أُنازَعُ القُرآنَ).
ابن حبان (ت ٣٥٤)، صحيح ابن حبان ١٨٤٣ • أخرجه في صحيحه

في الكاتب أو فيك! فحينما تفعل هذا مع القرآن ويكون ختام السورة توجيه لأشياء معينة، وأنت لا تجد هذه المعاني في قلبك فالخلل فيك أنت قطعًا! فكلام الله عزَّ وجلَّ منزه عن النقص وعن التناقض وعن الاختلاف.

❖ بيان عجز الإنسان:

فيقول ربنا سبحانه وتعالى ﴿فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ عَمَّا يُشۡرِكُونَ﴾[الأعراف ١٩٠] وبدأ بالإستفهام ﴿أَيُشۡرِكُونَ مَا لَا يَخۡلُقُ شَيۡـٔٗا﴾[الأعراف ١٩١] صفة الخالقية من أهم الصفات التي لا بد أن نركز عليها، وهي أول صفة ﴿ٱقۡرَأۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ ٱلَّذِي خَلَقَ﴾[العلق ١] أول وصف تعرف الله عزَّ وجلَّ به إلى عباده في كتابه صفة الخالقية، هذه الصفة التي لا ينازع فيها أحد، لا يدعيها أحد، هم يحاولون أن يفعلوا أي شيء لكن إلا أنهم يخلقوا...، لن يستطيعوا أبدا أن ﴿يَخۡلُقُواْ ذُبَابٗا وَلَوِ ٱجۡتَمَعُواْ﴾[الحج ٧٣].

﴿أَيُشۡرِكُونَ مَا لَا يَخۡلُقُ شَيۡـٔٗا وَهُمۡ يُخۡلَقُونَ﴾[الأعراف ١٩١] ثم هذه الآلهة التي يشركون، يعني يشركونها مع الله عزَّ وجلَّ ﴿وَلَا يَسۡتَطِيعُونَ لَهُمۡ نَصۡرٗا وَلَآ أَنفُسَهُمۡ يَنصُرُونَ﴾[الأعراف ١٩٢] هذه الآلهة لا تنصرهم ولا تنصر أنفسهم، أيًا كانت هذه الآلهة نجد أن في ختام السورة تركيز على عجز الآلهة، عجز المشركين، عجز الإنسان.

هذه القضية، قضية عجز الإنسان مهمة جدًا في الطرح الدعوي؛ لأنه أحيانًا هناك طرحان مهمان: طرح آيات الله أن تتكلم عن آيات الله الكونية المرئية المعروفة، يعني مثلًا لأن الغرب متقدم دنيويًا فيكتشف أشياء فأنت تكتشف حينما تسمع هذه الاكتشافات أنت تزداد خضوعًا لله وهم يزدادون طغيانًا – والعياذ بالله–. مثلما قلنا الفرق بين ﴿ٱقۡرَأۡ﴾[العلق ١] هناك شخص ﴿ٱقۡرَأۡ﴾ توصله إلى ﴿إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ لَيَطۡغَىٰٓ﴾[العلق ٦] وهناك شخص ﴿ٱقۡرَأۡ﴾ توصله إلى ﴿وَٱسۡجُدۡ وَٱقۡتَرِب﴾[العلق ١٩]. فهناك شخص يوصله العلم الدنيوي إلى ﴿وَٱسۡجُدۡ وَٱقۡتَرِب﴾، وهناك شخص العلم الدنيوي يشعره أنه مستغنٍ عن الله – والعياذ بالله–.

من المهم في الطرح التركيز على المنطقة الغامضة المنطقة الغير معروفة، المنطقة التي فيها عجز عند الإنسان. بمعنى أن هناك أشياء كثيرة، ال mechanism الخاص بها غير معروف unknown، كيف يحدث هذا؟! لا نعرف. الأماكن التي فيها عجز، من الواجب أن ننظر إلى –وهذا كثير– سواء في جسم الإنسان، في الكون... الإنسان عاجز عن مواجهة الزلازل، عاجز عن مواجهة البراكين، عاجز عن مواجهة الصواعق، عاجز عن فهم أشياء في جسده، في عقله... عاجز! هذه المنقطة مهم إبرازها

وبيان مدى ضعف الإنسان؛ هذا المشهد القرآني الذي يضع القرآن فيه المشرك في منتصف البحر، وكان المشرك في منتصف البحر يعترف بعجزه.

فكذلك نحن في الطرح لا بد أن تضع الإنسان في منتصف البحر الذي هي مكان العجز الذي لا يستطيع أن يطغى فيه مثلما يقولون لا يوجد ملاحدة في الخنادق، يعني مثل فرعون قال ﴿ءَامَنتُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱلَّذِىٓ ءَامَنَتْ بِهِۦ بَنُوٓاْ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾[يونس ٩٠] فمسألة بيان ضعف وعجز الإنسان.

العجيب أن –مثلما تكلمنا قبل ذلك– الذي اكتشف شيئًا ليس هو الذي خلقه، اكتشف مثلًا إنزيما معينًا بروتين هرمون... أي شيء في جسم الإنسان أو حتى في الطبيعة التي خلقها الله، يكتشف فيُسمي المكتَشَف باسمه! بمعنى هو وجد هرمون في جسم الإنسان فيسميه باسمه ﴿ءَأَنتُمْ تَخْلُقُونَهُۥٓ أَمْ نَحْنُ ٱلْخَٰلِقُونَ﴾[الواقعة ٥٩]، ويشعر أنه حقق انتصارًا، وكل الذي فعله أنه اكتشف قانونًا موجودًا أو شيئًا خلقه الله عزَّ وجلَّ، ثم يشعر بنوع من الطغيان وأنه قادر على كل شيء، وظن ذلك؛ وهذا الظن متوهم ﴿وَظَنَّ أَهْلُهَآ أَنَّهُمْ قَٰدِرُونَ عَلَيْهَآ أَتَىٰهَآ أَمْرُنَا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا﴾[يونس ٢٤].

فنجد التركيز في ختام السورة على عجز الآلهة، عجز المشركين؛ لأن السورة بدأت ﴿كِتَٰبٌ أُنزِلَ إِلَيْكَ فَلَا يَكُن فِى صَدْرِكَ حَرَجٌ مِّنْهُ لِتُنذِرَ بِهِۦ وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ * ٱتَّبِعُواْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ﴾[الأعراف٢-٣] الوحي ﴿وَلَا تَتَّبِعُواْ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ﴾[الأعراف ٣] أن هناك أولياء لا تتخذ وليًا من دون الله، فهنا قضية نسف الأولياء الذين من دون الله، ثم بيان اتباع ما أنزل الله إلينا كيف نتبع ما أنزله الله إلينا، فتجد أن في ختام السورة يعود مرة أخرى إلى علاج ما ذُكر في أول السورة.

﴿أَيُشْرِكُونَ مَا لَا يَخْلُقُ شَيْـًٔا وَهُمْ يُخْلَقُونَ * وَلَا يَسْتَطِيعُونَ لَهُمْ نَصْرًا وَلَآ أَنفُسَهُمْ يَنصُرُونَ﴾[الأعراف ١٩١-١٩٢] أي نفي مطلق لا يفعل له شيئًا؛ لا خلقوا وهم أصلًا يُخْلَقوا، ولا ينصروا أنفسهم ولا ينصروا غيرهم!

﴿وَإِن تَدْعُوهُمْ إِلَى ٱلْهُدَىٰ لَا يَتَّبِعُوكُمْ سَوَآءٌ عَلَيْكُمْ أَدَعَوْتُمُوهُمْ أَمْ أَنتُمْ صَٰمِتُونَ﴾[الأعراف ١٩٣] يوجد خلاف بين أهل العلم:

- لكن جماهير المفسرين ﴿وَإِن تَدْعُوهُمْ إِلَى ٱلْهُدَىٰ لَا يَتَّبِعُوكُمْ﴾ أي وإن يدعو المشركون الأصنام إلى جلب الهدى لهم، الأصنام لا تُجيبهم، الأصنام لا تجيب المشركين، أي المشرك يدعو الصنم يطلب منه الهدى. ﴿وَإِن تَدْعُوهُمْ﴾ أي وإن تدعوا أيها المشركون أصنامكم طلبًا للهدى فإن الأصنام لن

تجيبكم. ﴿سَوَآءٌ عَلَيۡكُمۡ﴾ أيها المشركون أدعوتم الآلهة، طلبتم منها النفع أو الهدى ﴿سَوَآءٌ عَلَيۡكُمۡ أَدَعَوۡتُمُوهُمۡ أَمۡ أَنتُمۡ صَٰمِتُونَ﴾.

- هناك قول آخر: ﴿وَإِن تَدۡعُوهُمۡ﴾ أيها المسلمون، أيها المسلمون وإن تدعوا المشركين إلى الهدى؛ فإن المشركين لا يتبعوكم، فسواء عليكم أيها المسلمون أدعوتم المشركين أم أنتم صامتون عن دعوتهم لن يستجيبوا لكم؛ لأنهم وصلوا إلى مرحلة من قمة الإعراض، طول السورة لم تُؤثر فيهم هذه الآيات. واضح؟! .

﴿سَوَآءٌ عَلَيۡكُمۡ أَدَعَوۡتُمُوهُمۡ أَمۡ أَنتُمۡ صَٰمِتُونَ﴾المفسرون قالوا: لماذا قال ﴿سَوَآءٌ عَلَيۡكُمۡ أَدَعَوۡتُمُوهُمۡ أَمۡ أَنتُمۡ صَٰمِتُونَ﴾ لماذا قال ﴿أَنتُمۡ صَٰمِتُونَ﴾جملة اسمية و﴿أَدَعَوۡتُمُوهُمۡ﴾ الجملة الفعلية تفيد أن كل شيء يتوقف ثم يعود؛ لكن الثبات والمداومة في الجملة الاسمية ﴿أَمۡ أَنتُمۡ صَٰمِتُونَ﴾فقالوا: كأن الأصل أن الإنسان يصمت ثم يتكلم.

فلو أن هذا مع الآلهة ،كأن المشرك حاله مع الآلهة، أنه لا يطلب من آلهته إلا وقت الاحتياج؛ لكن هو لا يتعبد للآلهة طوال الوقت. بمعنى لو الآية معناها على القول الأول –الذي عليه الأكثر– أي حال المشرك مع الآلهة أن الأصل فيه أنه لا يذكرها كثيرًا إلا وقت الاحتياج، فلو المعنِي هنا المشرك معناه أنه صامت معها لا يطلب منها إلا وقت الاحتياج، أما المسلم فحاله مع ربه في ختام السورة ﴿وَٱذۡكُر رَّبَّكَ فِي نَفۡسِكَ تَضَرُّعًا وَخِيفَةً وَدُونَ ٱلۡجَهۡرِ مِنَ ٱلۡقَوۡلِ بِٱلۡغُدُوِّ وَٱلۡأٓصَالِ وَلَا تَكُن مِّنَ ٱلۡغَٰفِلِينَ﴾[الأعراف ٢٠٥] فحال المسلم مع ربه مختلف، يُكثر من ذكر ربه في الرخاء وفي السراء وفي الضراء وفي الشدة.

﴿سَوَآءٌ عَلَيۡكُمۡ أَدَعَوۡتُمُوهُمۡ أَمۡ أَنتُمۡ صَٰمِتُونَ﴾[الأعراف ١٩٣] ولو الآية المعْنِي بها حال المسلم في دعوة المشرك المعْرِض الذي تبيَّن إعراضه، إذاً هو يعرض عنه، لكن بين الفينة والأخرى يدعوه؛ لكن لن يضع كل مجهود دعوي معه؛ لأنه تبيَّن إعراضُه. أعرض وبعد كل الآيات فكأن هناك إشارة إلى تعامل المسلم مع المشرك المعْرِض الذي تبينت له الآيات، فلا يركز معه كثيرًا، له طاقة معينة؛ بل عُوتب النبي ﷺ في اهتمامه بصناديد قريش المعرضين وتركه للمقبل ﴿وَأَمَّا مَن جَآءَكَ يَسۡعَىٰ * وَهُوَ يَخۡشَىٰ﴾[عبس ٨-٩] هو أولى بالاهتمام.

❖ قمة التحدي:

﴿وَإِن تَدۡعُوهُمۡ إِلَى ٱلۡهُدَىٰ لَا يَتَّبِعُوكُمۡۚ سَوَآءٌ عَلَيۡكُمۡ أَدَعَوۡتُمُوهُمۡ أَمۡ أَنتُمۡ صَٰمِتُونَ * إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾[الأعراف ١٩٣-١٩٤] الذي جعل جمهور المفسرين يختار أن هذا الخطاب للمشركين قال أن الآيات قبلها عتاب للمشركين ،وبعدها خطاب للمشركين. ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ أي: يا أيها المشركون ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ عِبَادٌ أَمۡثَالُكُمۡ﴾ فهنا بعض المفسرين توقف وقال: السياق كله عن دعوة المشرك للأصنام ودعاء المشرك للصنم، فكيف يقول الله عن الأصنام أنها عباد؟! ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ لو أن الخطاب للمشرك ﴿عِبَادٌ أَمۡثَالُكُمۡ﴾ مع أن جمهور المفسرين على أنها الأصنام.

- لذلك بعض قلة من المفسرين قال: هنا المقصد أنهم يعبدون الملائكة، خطاب مع قوم من المشركين الذين يعبدون الملائكة. عندما تجد هذا القول ،إذًا ماهو الدافع الذي جعله يختار الملائكة؟ كلمة ﴿عِبَادٌ﴾، أو الذين يعبدون بشرًا من الذين خلقهم الله كالذين يعبدون المسيح –تعالى الله عما يقولون– فمن اختار هذه الأقوال، أو قال شرك الألوهية والتحاكم إلى غير الله من المعاصرين من اختار هذا، اختاره بسبب كلمة ﴿عِبَادٌ﴾.
- لكن قال: العباد تأتي بمعنى المخلوقات، كل المخلوقات ﴿إِن كُلُّ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ إِلَّآ ءَاتِي ٱلرَّحۡمَٰنِ عَبۡدًا﴾[مريم ٩٣] وجاءت بصيغة العموم في آخر سورة مريم، وإن كان بعضهم أيضًا قال: العموم هناك مخصص أو مقيد. فأيًا كان فجمهور المفسرين على أن كلمة ﴿عِبَادٌ﴾[الأعراف ١٩٤] هي الأصنام.
- أو خاطبهم على قدر عقولهم، أنتم جعلتم الأصنام في شكل مخلوقات ،وجعلتم لهم عين وأذن ويد وقدم... أنت جعلت كل هذا للصنم ؟! فافترض أنه يسمع، وافترض أنه يمشي، وافترض أنه يفهم! بمعنى أنك جعلت هذا الصنم يرقى، لكن أقصى ما يمكن أن يكون عليه هو أن يكون مخلوقًا مثلك!! فهل ستعبد مخلوقًا مثلك؟! تتحاكم إلى شرع وضعه بشر مثلك؟! كيف ذلك؟!!

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ عِبَادٌ أَمۡثَالُكُمۡۖ فَٱدۡعُوهُمۡ فَلۡيَسۡتَجِيبُواْ لَكُمۡ﴾[الأعراف ١٩٤] قمة التحدي،طوال السورة توضيح وتبيين وتفصيل ...، فهنا كما في سورة الأعراف فيها التفصيل،وهذا أحد الأوجه التي قيلت في صاد ﴿الٓمٓصٓ﴾[الأعراف ١] تفصيل الآيات، ﴿ءَايَٰتٖ مُّفَصَّلَٰتٖ﴾[الأعراف ١٣٣]كما جاء في آيات موسى عليه السلام لفرعون.

﴿فَٱدۡعُوهُمۡ فَلۡيَسۡتَجِيبُواْ لَكُمۡ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ﴾[الأعراف ١٩٤] هاتوا أقصى ما عندكم، اذهبوا واطلبوا منهم، وانظروا ماهم فاعلون! ﴿فَلۡيَسۡتَجِيبُواْ لَكُمۡ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ﴾. ثم استفهام: ﴿أَلَهُمۡ أَرۡجُلٞ يَمۡشُونَ بِهَآ أَمۡ لَهُمۡ أَيۡدٖ يَبۡطِشُونَ بِهَآ أَمۡ لَهُمۡ أَعۡيُنٞ يُبۡصِرُونَ بِهَآ أَمۡ لَهُمۡ ءَاذَانٞ يَسۡمَعُونَ بِهَا﴾[الأعراف ١٩٥] أي حتى هذه أصنام من أحجار، يوم ترتقي ستتحرك كالإنسان، وبالرغم من ذلك هي لا تتحرك ولا تبطش ولا تسمع ولا تبصر...، كيف تعبدون هذه الأصنام؟!

فعلًا أحيانًا العقل البشري يصل إلى حالة من الحضيض، والدنو في التفكير، وينزل إلى أسفل سافلين ؛إنه يعبد أصنامًا ويعبد أحجارًا! والآن ممكن يعبد البقر ويعبد الطبيعة ويعبد هواه (عبد الدينار والدرهم)[٢]؛ فهذه حالة من الانتكاسة، حالة من الانسلاخ، من البعد عن الفطرة، كيف يرضى بهذا؟! آيات بيِّنات واضحات، والذي يعتقد أن هذا كان بسبب غباء المشركين من قريش مثلًا، لكن القضية ليست قضية ذكاء! الناس تضرب المثل بذكاء الفراعنة، مع أنهم صدقوا أن فرعون ربهم الأعلى!! وكانوا يعددون الآلهة: آلهة للشمس وآلهة للقمر، وآلهة للحب وآلهة للمشاجرات وآلهة للصلح بعد الشجار...!! كان لديهم آلهة موزعة، وبالرغم أن مستوى الذكاء... وربنا قال عن غيرهم من المشركين ﴿أَتَبۡنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ ءَايَةٗ تَعۡبَثُونَ﴾[الشعراء ١٢٨] هو متميز، قال ربنا ﴿يَعۡلَمُونَ ظَٰهِرٗا﴾[الروم ٧] هو لديه علم؛ لكن ظاهر في الحياة الدنيا فقط ﴿ظَٰهِرٗا مِّنَ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا﴾ وقال قبلها في سورة الروم ﴿وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ * يَعۡلَمُونَ ظَٰهِرٗا مِّنَ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا﴾[الروم ٦-٧]؛ لأن علمهم متركز هنا في قضية واحدة؛ فهنا القضية أنه أغلق الجزء المتعلق بالعبودية؛ لكن الجزء المتعلق بدنياه هو ذكي جدًا فيه.

فعندما تسمع أن المشركين كانوا يعبدون أصنامًا فتستغرب ذلك، هذا لايعني أنه كان غبيًا! ليست الصورة كما يصورها لنا الإعلام اليوم، كما يصورن لنا شخصية "أبوجهل" على أنه كان رجلًا غبيًا، لم يكونوا مشركين بسبب غباء في عقولهم، لكنه ضغط المجتمع...، فَهم تبعات العبودية "لو كانت كلمةً لقلناها". فالصنم عندما يضايقه سيغيره، كانوا يصنعونه من تمر العجوة، فإذا غضبوا منه أكلوه ، يعني أنه قادرٌ على هذا الصنم، هو يعلم ذلك جيدًا ، لكن عندما تقول له عبودية، وأن هناك ربٌ يشرّع لنا، وأن هناك حساب يوم القيامة ودار آخرة، فيتهرب من تحمل هذه التبعات ...

لسان حاله "لا أريد أن أغير حياتي وما كنت عليه". فالأموال التي نكسبها من وراء الأصنام ومركزنا، والأصنام التي بنيناها في مكة، وكانت كل قبيلة على مستوى قبائل الجزيرة العربية من أجل أن تسمح لها

[٢] [عن أبي هريرة]: تَعِسَ عبدُ الدِّينارِ، والدِّرْهَمِ، والقَطِيفَةِ، والخَمِيصَةِ، إنْ أُعْطِيَ رَضِيَ، وإنْ لَمْ يُعْطَ لَمْ يَرْضَ.
البخاري (ت ٢٥٦)، صحيح البخاري ٦٤٣٥ • [صحيح] •

قريش بوضع الأصنام عند الكعبة –كان هناك تقريبًا ثلاثمائة وستون صنمًا حول الكعبة– كانت قريش تأخذ عليهم عهدًا بأن يحفظوا لهم الطريق في الأسفار، فكانت كل القبائل عندما تسافر في الجزيرة العربية تخشى قطاع الطرق ما عدا قريش، كانوا يسافرون في أمان ﴿رِحْلَةَ ٱلشِّتَآءِ وَٱلصَّيْفِ﴾[قريش ٢] لماذا؟ على مدار الطريق هي سمحت للقبائل بوضع الأصنام حول الكعبة؛ استفادت من الكعبة تجاريًا، فعندما تهد كل تلك الأصنام، أنت تهد التجارة، والمصالح الدنيوية، هذا ارتباط المصالح الدنيوية مع الشرك، فكان هناك منازعة. المشرك –هو بنفسه– قد يدمر صنمه؛ لكن أنت لا! لو حاولت تدمير صنمه يقول لك: الآلهة ونموت في سبيل الآلهة؛لكنهوعندما تتغير مصالحه، يأتي بآلهة أخرى تناسب هواه!

﴿أَلَهُمْ أَرْجُلٌ يَمْشُونَ بِهَآ ۖ أَمْ لَهُمْ أَيْدٍ يَبْطِشُونَ بِهَآ ۖ أَمْ لَهُمْ أَعْيُنٌ يُبْصِرُونَ بِهَآ ۖ أَمْ لَهُمْ ءَاذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا ۗ قُلِ﴾[الأعراف ١٩٥] هنا تحدي ﴿قُلِ ٱدْعُوا۟ شُرَكَآءَكُمْ﴾ كلهم، يعني اطلبوا منهم، وهاتوا واجمعوا كل القوى ﴿ثُمَّ﴾ خدوا فترة في التجميع والتفكير ﴿ثُمَّ كِيدُونِ﴾ خططوا لقتلي للكيد بي، الياء هنا محذوفة ياء المتكلم "ثم كيدوني"، ونفذوا الكيد مباشرة ﴿فَلَا تُنظِرُونِ﴾ لاتنتظروا ﴿فَلَا تُنظِرُونِ﴾.

آية من آيات التحدي، يوجد ثلاث آيات تحدي في القرآن هذه إحداهن:

– منها قالها سيدنا هود في سورة هود.

– ومنها قالها سيدنا نوح في آخر سورة يونس.

– وهنا آخر سورة الأعراف سيدنا محمد ﷺ، الآيات قريبة من بعضها فيها تحدي ﴿كِيدُونِ فَلَا تُنظِرُونِ﴾.

هنا بعد ما تحداهم النبي محمد ﷺ تحديًا واضحًا في ﴿كِيدُونِ فَلَا تُنظِرُونِ﴾ أي قوة هذه، وأي عقيدة هذه! ما الدافع؟ ما الذي وقر في القلب يجعل الإنسان يقول مثل هذا الكلام؟! هذه هي العقيدة، وليس مجرد العلم النظري، هذه هي العقائد؛ ما عُقِدَ في قلبه ﷺ جعله يتكلم بهذه الكلمات. فقال بعدها معللًا (إن) التعليلية جاءت بعدها ﴿إِنَّ وَلِيِّۦَ ٱللَّهُ﴾[الأعراف ١٩٦] أنا لا أخاف من شرككم ولا شركائكم ولا أفعالكم ولا كيدكم، لا أخاف من كل هذا، لماذا؟ لأن ﴿وَلِيِّۦَ ٱللَّهُ﴾ ف "إن" تعليلية ﴿إِنَّ وَلِيِّۦَ ٱللَّهُ﴾.

لذلك قوة المسلم ويقين المسلم أحيانًا يجعل أهل الباطل في شك من باطلهم، وذكرنا ذلك في سورة سبأ، وأيضًا في سورة طه عندما قال موسى -عليه السلام- لفرعون ﴿إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ فَأَرْسِلْ مَعَنَا بَنِي إِسْرَٰٓءِيلَ وَلَا تُعَذِّبْهُمْ قَدْ جِئْنَٰكَ بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّكَ وَٱلسَّلَٰمُ عَلَىٰ مَنِ ٱتَّبَعَ ٱلْهُدَىٰٓ﴾[طه ٤٧] تخيل سيدنا موسى داخل على فرعون ويقول له: جئت بآية من سيدك - لم يقل بآية من ربي- جئت بآية من مَن؟ ﴿مِّن رَّبِّكَ﴾ ويقول له: لاتخاف، لن يحصل لك مكروه لو اتبعت الهدى ﴿وَٱلسَّلَٰمُ عَلَىٰ مَنِ ٱتَّبَعَ ٱلْهُدَىٰٓ﴾ فرعون ماذا قال؟ ﴿قَالَ فَمَن رَّبُّكُمَا يَٰمُوسَىٰ﴾[طه ٤٩] أي: هل أنت مدعوم، لك سند تستند عليه، من أين أتيت بهذا الكلام؟ تستند إلى من؟!

فكذلك هنا عندما قال النبي ﷺ: ﴿كِيدُونِ فَلَا تُنظِرُونِ﴾[الأعراف ١٩٥] بيَّن ﴿إِنَّ وَلِيِّۦَ ٱللَّهُ﴾[الأعراف ١٩٦] الذي يتولى أموري. ماذا لو تولاك الله؟! هل هذه الولاية خاصَّة بالنبي ﷺ فقط وليس لأحد من الأمة من هذه الولاية نصيب؟ لا يوجد لأحد من هذه الأمة من هذه الولاية نصيب؟ أبدًا، بالعكس جاءت الآية مطمئنة لمن سار على خطى النبي ﷺ فقال بعدها ﴿وَهُوَ يَتَوَلَّى ٱلصَّٰلِحِينَ﴾، ﴿إِنَّ وَلِيِّۦَ ٱللَّهُ﴾ ثم في جملة معترضة ﴿وَهُوَ يَتَوَلَّى ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ فالعبد الصالح بمعنى الصلاح كما جاء في السورة ﴿وَٱلَّذِينَ يُمَسِّكُونَ بِٱلْكِتَٰبِ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُصْلِحِينَ﴾[الأعراف ١٧٠]. فكذلك هنا ﴿وَهُوَ يَتَوَلَّى ٱلصَّٰلِحِينَ﴾[الأعراف ١٩٦] الله سبحانه وتعالى يصرف الكيد عن عباده الصالحين، ويوجد تعريض بالذي ليس من أهل الصلاح أنه يكون على وَجَل؛ لكن العبد الصالح فشعاره ﴿فَأَىُّ ٱلْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِٱلْأَمْنِ﴾[الأنعام ٨١].

❖ أعلى صور الولاية:

﴿إِنَّ وَلِيِّۦَ ٱللَّهُ﴾[الأعراف ١٩٦] تأكيد، ﴿إِنَّ وَلِيِّۦَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْكِتَٰبَ﴾ اسم موصول يأتي للتعريف. هنا اختار النبي ﷺ وصف من صفات الله للتعريف به في مقام الولاية في مقام التحدي فذكر ﴿ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْكِتَٰبَ﴾ لم يقل "إن ولي الله الذي أهلك فرعون"، "إن ولي الله الذي أهلك الظالمين"، "إن ولي الله الذي فعل كذا وكذا..." أبدًا! ذكر صفة إنزال الكتاب، وكل صفة في مقام لها مناسبة أي ذكر الصفة مثل ﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ * خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِنْ عَلَقٍ﴾[العلق ١-٢]؛ فخلْق الإنسان من علق هذه الصفة للرب سبحانه وتعالى متناسبة مع طلب قراءة القرآن لأول مرة.

هنا ﴿إِنَّ وَلِيِّۦَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْكِتَٰبَ﴾[الأعراف ١٩٦] فقيل: ما هي المناسبة؟ أن أعلى صور الولاية، أعلى صور ولاية الله للعباد أن ينزل إليهم الكتاب! ﴿ٱللَّهُ وَلِىُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ أعلى صور التَّجلي لهذه

الولاية ﴿ٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يُخۡرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ﴾[البقرة ٢٥٧] كيف يخرجون من الظلمات إلى النور؟ بإنزال الكتب! أعلى صور الولاية. أي **إذا أردت أن تعرف هل تولاك الله أم أعرض عنك؟ انظر إلى علاقتك بكتابه**، لا تنظر إلى صحتك، وإلى مالك، لا!! الولاية تأتي الولاية الخاصَّة...، ذكرنا في خطبة سورة الشورى اسم الله (الولي) جاء معرفًا (الولي) مرتين في سورة الشورى: مرة مع التحاكم إلى الكتاب، ومرة مع الرزق الدنيوي. فيوجد ولاية عامة، وسُنَّة الله في توزيع الأرزاق الدنيوية، ويوجد ولاية خاصَّة. فقد يكون المؤمن فقيرًا مستضعفًا؛ لكن تولَّاه الله بشيء وقر في قلبه.

الذي قال هذه الآية ﴿إِنَّ وَلِيِّۦَ ٱللَّهُ ٱلَّذِي نَزَّلَ ٱلۡكِتَٰبَ﴾[الأعراف ١٩٦] الذي قيلت على لسانه الذي هو النبي محمد ﷺ أوذي في الله ولم يؤذ أحد، حُوصر في الشِّعْب، نزل الدم من وجهه الشريف ﷺ! فالتصور الضيق عن الولاية تصور خاطئ. إن أنا صحتي تكون جيدة، أو لا يمسني أحد بأي شيء، أو مالي... أعلى صور الولاية أن الله اصطفاه ونزَّل عليه القرآن، كما أن الله اصطفى موسى ﴿يَٰمُوسَىٰٓ إِنِّي ٱصۡطَفَيۡتُكَ عَلَى ٱلنَّاسِ بِرِسَٰلَٰتِي وَبِكَلَٰمِي﴾[الأعراف ١٤٤]. فالله عزَّ وجلَّ اصطفى خير الكتب لخير البشر؛ القرآن والنبي محمد ﷺ، واصطفانا أن نكون من هذه الأمة ﴿خَيۡرَ أُمَّةٍ أُخۡرِجَتۡ لِلنَّاسِ﴾[آل عمران ١١٠]؛ لكن بشرطه.

﴿إِنَّ وَلِيِّۦَ ٱللَّهُ ٱلَّذِي نَزَّلَ ٱلۡكِتَٰبَ﴾[الأعراف ١٩٦] فكما أن الله عزَّ وجلَّ تولاني بأعلى صور الولاية، واصطفاني بإنزال الكتاب، فكذلك يتولاني في نصرة هذا الكتاب؛ أن أقوم أنا بنصرة الكتاب. لذلك **الذي يريد أن ينال هذه الولاية، ينصر القضايا التي ينصرها الكتاب!** أي أعلى صورة التي جاءت فيها إنزال الكتاب. أنت تريد أن تنال هذه الولاية، تمسَّك بالكتاب؛ على قدر تَمَسُّكَ بالكتاب تنال هذه الولاية، بل تصبح -ليس فقط من أهل ولاية الله- بل من أهل الله وخاصته سبحانه وتعالى.﴿إِنَّ وَلِيِّۦَ ٱللَّهُ ٱلَّذِي نَزَّلَ ٱلۡكِتَٰبَ﴾[الأعراف ١٩٦]

❖إنزال الكتاب هو الفرقان:

وقيل: إن إنزال الكتاب هو الذي أدَّى إلى هذه المعارك أصلًا، فقد كان ﷺ قبل إنزال الكتاب هو الصادق الأمين ﴿قَدۡ كُنتَ فِينَا مَرۡجُوّٗا قَبۡلَ هَٰذَآ﴾[هود ٦٢] قبل هذه الرسالة، إنزال الكتاب هو الفرقان بين الحق والباطل، هو الذي أشعل هذه المعركة، هو الذي أيقظ الصراع بين الحق والباطل. فتَمَسُّكِي بالكتاب الذي أدى إلى هذه المعركة لست نادمًا عليه! بل أنا مُوقن أن هذا الكتاب كما أنه قادني لهذه المعركة، فإن تَمَسُّكِي بالكتاب أيضًا سوف يؤدي إلى نصرتي.

وهذه أشبه بختام سورة القصص؛ الآيات التي نزلت، أو قيل أنها نزلت في لحظات الهجرة، هجرة النبي ﷺ وهو تارك مكة ﷺ وذاهب إلى المدينة، في الطريق يترك أحب البلاد إلى الله، أحب البلاد إليه، يتركها ويذهب إلى المدينة فتنزل الآيات؛ لم ينزل "إن الله رادك إلى معاد"، أيضًا جاء بوصف ﴿إِنَّ ٱلَّذِى فَرَضَ عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ لَرَآدُّكَ إِلَىٰ مَعَادٍ﴾[القصص ٨٥] أي إلى مكة مرة أخرى فاتحًا بموعد محدد وبقدر ﴿إِنَّا كُلَّ شَىْءٍ خَلَقْنَٰهُ بِقَدَرٍ﴾[القمر ٤٩]. ﴿إِنَّ ٱلَّذِى فَرَضَ عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ لَرَآدُّكَ إِلَىٰ مَعَادٍ﴾[القصص ٨٥] قيل: فتح مكة، وقيل وفاته ﷺ، وربط ابن كثير الإثنين بأن فتح مكة كان علامة على وفاته ﷺ.

﴿إِنَّ ٱلَّذِى فَرَضَ عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ لَرَآدُّكَ إِلَىٰ مَعَادٍ﴾[القصص ٨٥] إن الذي أنزل عليك القرآن؛ هذا التمسك بالقرآن هو الذي سوف يعيدك مرة أخرى إلى مكة. أحيانًا يتمسك الإنسان بالوحي فيتعرض إلى أذى أو طرد أو خسران لبعض المناصب الدنيوية، فيعتقد أن سبيل الحصول على التمكين هو ترك هذا القرآن؛ لكن هو -هكذا بهذا الفعل- بتركه للقرآن هو يُباعد عن التمكين أكثر؛ لأن الولاية على القرب من كتابه سبحانه وتعالى، فـ ﴿إِنَّ وَلِىِّىَ ٱللَّهُ﴾[الأعراف ١٩٦] بالرغم من أني أتحداكم وفي هذه المعركة، لست متنازلًا عن الوحي عن الفرقان! فكما أنه أنزل فرقانًا فاصلًا بين الحق والباطل -فيوجد فصل في المعنويات- كذلك هو قادر على الفصل بيني وبينكم، وأن يفرق بيني وبينكم وهو الفتاح العليم سبحانه وتعالى.

﴿إِنَّ وَلِىِّىَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْكِتَٰبَ﴾ صيغة التدرج في إنزال الكتاب؛ أنا مؤمن بكل تفصيل نزل في الكتاب، هذا الكتاب الذي نزل مُفصَّلًا أنا أؤمن بكل تفصيل جاء فيه.

﴿إِنَّ وَلِىِّىَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْكِتَٰبَ ۖ وَهُوَ﴾ سبحانه وتعالى تستمر ولايته سبحانه وتعالى لكل عبدٍ صالحٍ سار على خطى النبي ﷺ. لذلك كان شيخ الإسلام ابن تيمية يقول: "**الكفاية على قدر الاتباع**" أي كفاية الله لك على قدر اتباعك للنبي ﷺ، والناقصة بالناقص؛ تنقص كفاية الله عنك بقدر انقاصك من اتباعه ﷺ.

هذا وليِّي، هذا وصف وليِّي أنه أنزل الكتاب هداني وأنه ينصرني، أما أولياؤكم والذين تدْعُون من دونه لا ينصرون ولا يهدون. وليِّي هداني ونصرني، يهديني وسينصرني، أما أولياؤكم لا تفعل شيء من النصرة والهدى ﴿وَٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَكُمْ وَلَآ أَنفُسَهُمْ يَنصُرُونَ﴾[الأعراف ١٩٧] تكرار ثاني.

﴿وَإِن تَدۡعُوهُمۡ إِلَى ٱلۡهُدَىٰ لَا يَسۡمَعُواْۖ وَتَرَىٰهُمۡ يَنظُرُونَ إِلَيۡكَ وَهُمۡ لَا يُبۡصِرُونَ﴾[الأعراف ١٩٨]:

أيضًا قيل: ﴿وَإِن تَدۡعُوهُمۡ إِلَى ٱلۡهُدَىٰ﴾ نفس القولين؛ لكن هنا أكثر المفسرين عكسوا فقالوا: ﴿وَإِن تَدۡعُوهُمۡ إِلَى ٱلۡهُدَىٰ لَا يَسۡمَعُواْ﴾ وإن تدعوهم يا محمد ﷺ -تدعو الأصنام- إلى الهدى لا يسمعوا. ﴿وَتَرَىٰهُمۡ يَنظُرُونَ إِلَيۡكَ وَهُمۡ لَا يُبۡصِرُونَ﴾ الجمهور قال: ﴿وَإِن تَدۡعُوهُمۡ﴾ أي الأصنام أيضًا. ﴿وَإِن تَدۡعُوهُمۡ إِلَى ٱلۡهُدَىٰ لَا يَسۡمَعُواْ﴾ وترى الأصنام موجهة إليك -لأنه جعل لها أعين- تنظر إليك أي مقابلة إليك، ولا تفقه شيئًا مما تقول.

وقيل ﴿وَإِن تَدۡعُوهُمۡ﴾ أي المشركين، ﴿وَتَرَىٰهُمۡ يَنظُرُونَ إِلَيۡكَ وَهُمۡ لَا يُبۡصِرُونَ﴾ترى المشركين ينظرون إليك وهم لا يبصرون، وأنا أمْيَل للقول الثاني- ﴿وَإِن تَدۡعُوهُمۡ﴾ أي وإن تدعوهم يا محمد، وإن تدعو هؤلاء المشركين لا يسمعوا لا يستفيدوا.

في الأول ﴿لَا يَتَّبِعُوكُمۡ﴾[الأعراف ١٩٣] لو قلنا أيضًا القول الأول على دعوة المسلمين للمشركين ﴿لَا يَتَّبِعُوكُمۡ﴾ ليس فقط لا يتبعوكم، وأيضًا لا يسمعوكم! يزدادوا بُعدًا، يزدادوا طغيانًا. أي في البداية يسمع ولا يتبع، ثم الآن لا يسمع ﴿وَإِن تَدۡعُوهُمۡ إِلَى ٱلۡهُدَىٰ﴾ آية ١٩٨ ﴿لَا يَسۡمَعُواْ﴾ إذاً أصبحت قلوبهم في أكنَّة وفي آذانهم وقر.

﴿وَإِن تَدۡعُوهُمۡ إِلَى ٱلۡهُدَىٰ لَا يَسۡمَعُواْۖ وَتَرَىٰهُمۡ يَنظُرُونَ إِلَيۡكَ﴾[الأعراف ١٩٨] لو على قول المشركين ينظرون للنبي ﷺ أثناء الدعوة، ولكنهم لا يبصرون. فارق بين النظر والبصر. النظر: وجهة الوجه في إتجاه معين؛ لكن هل استفاد من هذا النظر؟ أي مفاد النظر هل أبصر شيء؟ ﴿وَهُمۡ لَا يُبۡصِرُونَ﴾. لذلك هذه الصفحة جاء فيها ذكر الأبصار ثلاث مرات: ﴿فَإِذَا هُم مُّبۡصِرُونَ﴾[الأعراف ٢٠١]، ﴿بَصَآئِرُ﴾[الأعراف ٢٠٣]، وهنا ﴿وَهُمۡ لَا يُبۡصِرُونَ﴾[الأعراف ١٩٨] ؛ فتكلم عن الذين لا يبصرون مطلقًا، ثم تكلم عن اللحظة التي ممكن إنسان يفقد فيها البصيرة لحظيًا المتقي الذي يسقط في المعصية ثم يبصر أو يَهُمَّ بالمعصية ثم يفيق، ثم الذي يريد أن يحافظ على البصائر في القرآن ﴿هَٰذَا بَصَآئِرُ﴾[الأعراف ٢٠٣].

❖ المطلوب وقت الدعوة:

﴿وَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ * خُذِ ٱلْعَفْوَ وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَٰهِلِينَ﴾[الأعراف ١٩٨-١٩٩] خطاب للنبي ﷺ. المتلقي لسورة الأعراف...، تخيل أننا سنتلقَّى السورة لكي نطبقها. تخيل لو نحن نريد أن نُطبِّق الموجود في سورة الأعراف فأنت بداخلك حِمْل وتعب، أنت تتلقى الآيات للتطبيق وللتخلق بها. لذلك فريد الأنصاري -رحمه الله- كان يسميها آيات الابتلاء. أنت تُبْتَلى ﴿وَإِذِ ٱبْتَلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ رَبُّهُۥ بِكَلِمَٰتٍ﴾[البقرة ١٢٤] هذه الكلمات كلمات الابتلاء؛ فإن طبَّقْتها فقد أفلحت، فإن تخلَّفْت بها أولًا فقد أفلحت. المتلقي لآيات سورة الأعراف مع التحدي يكون في حالة نفسية يريد جمعًا من الناس يساعدونه، يريد أن يستنفر كل الهمم التي بجواره حتى يستطيع أن يقوم بهذه المهمة، لا يقبل أي شيء من أي أحد، يريد كل الناس يبلغوا الغاية القصوى في التطبيق، ممكن يكون مُسْتَفزًا في جو الصراع...، فتخيل أنت مُطالب في هذه اللحظات -بالرغم من هذا الصراع- أن تكون في حالة نفسية هادئة، متصل بالله، تقبل من الناس ما تجود به أخلاقهم!!

﴿خُذِ ٱلْعَفْوَ﴾[الأعراف ١٩٩] العفو جمهور المفسرين: أي ما تيسَّر من أخلاق الناس. كل واحد قدرته أن يؤدي شيئًا، خذه منه، مع أنه في الواقع، يريد من الناس أن يكون لديها القدرة على فعل كل شيء؛ لأنه واقع المعركة فأنت لا تقبل أي شيء؛ لكن عندما يأتي أحدهم بكف صدقة، بكف من شعير يتصدق به اقبله اشكره على ذلك، يأتي آخر بجهد بسيط تشكره وتقول... هذا بحفظ كتاب الله، هذا بالسُّنة، هذا بدعوة، هذا بآية يُبلِّغها، هذا بحديثٍ يحفظه، هذا... تقبل! وهكذا الجبال تُبْنَى من الحصى.

أحيانًا الإنسان يفقد هذا الهدوء النفسي فيعطي أثرًا عكسيًا على الأتباع. أن تفقد هدوءك النفسي يمكن أن يؤثر هذا على الأتباع. فانظر إلى هذه الآية العجيبة، التي جاءت في سياق عجيب، بالرغم من قوة التحدي تجد ﴿خُذِ ٱلْعَفْوَ﴾ أن هذا الواقع لا يُؤثر في أخلاقك في التعامل مع الناس، حتى قيل: حتى مع المشركين، حتى قال بعض أهل العلم: أن هذه الآية حتى في التعامل مع المشركين، وأنك لا تبادئهم بالقتال وأن هذه المرحلة مكية، وأن هذه المرحلة ليست مرحلة قتال.

﴿خُذِ ٱلْعَفْوَ...﴾ثم بعدها ﴿وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ نَزْغٌ﴾[الأعراف ٢٠٠] الغضب الذي قد يعتريك أثناء دعوة المشركين؛ لأن الآية ﴿وَإِن تَدْعُوهُمْ إِلَى ٱلْهُدَىٰ﴾[الأعراف ١٩٨] الآية ١٩٨ وإن تدعو يا محمد ﷺ المشركين إلى الهدى، وإن تدعوهم اقبل منهم وخذ العفو ولا تبدأهم بالقتال الآن ولا تغضب،

ولو حاول الشيطان إغضابك في هذه اللحظات، ﴿فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ﴾[النحل ٩٨] واستمر في الدعوة إلى الله. هذا أحد الأوجه التي قيلت في سياق هذه الآيات، تخيل أن يحافظ الإنسان على هدوئه، كأن هنا -والله أعلى وأعلم - إشارة إلى آية موسى -عليه السلام- ﴿وَلَمَّا سَكَتَ عَن مُّوسَى ٱلْغَضَبُ﴾[الأعراف ١٥٤] أن تحاول ألَّا تصل إلى هذه المرحلة؛ حتى لا تُلْقي الألواح، حتى لا تُلْقي الكتاب الذي أنزله الله إليك.

﴿خُذِ ٱلْعَفْوَ وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ﴾[الأعراف ١٩٩] العفو ما تيسر من أخلاق الناس، وقيل من يتصدق بفضل المال دون مشقة، العفو بمعنى ماذا؟ العفو الشيء الذي يُفْعل بدون تكلف، يقولون عفو الخاطر، العفو يقولون: الزيادة. وتكلمنا عن مسألة العفو بالتفصيل في اللغة عند قوله سبحانه تعالى ﴿حَتَّىٰ عَفَواْ﴾ ﴿ثُمَّ بَدَّلْنَا مَكَانَ ٱلسَّيِّئَةِ ٱلْحَسَنَةَ حَتَّىٰ عَفَواْ﴾[الأعراف ٩٥] تكلمنا وحاولنا أن نصل للجذر اللغوي وقلنا أن هناك بقايا في فتح يفتحه الله عزَّ وجلَّ في هذه الآية، وكتاب الله لا يخلق على كثرة الرد، فهنا العفو الشيء الذي يخرج -الزيادة- بلا تكلف، فهناك أفعال يمكن أن يعملها الإنسان بمشقة -وهذا الأعلى- ، وهناك أفعال يفعلها الإنسان بلا مشقة تقبلها منه ﴿خُذِ ٱلْعَفْوَ﴾[الأعراف ١٩٩]. لكن ليس معنى أني أقبل هذا اليسير أني لا آمر بالمعروف، أنا أقبل من الناس اليسير منهم؛ لكن في خطابي لهم أكلمهم عن كل فضائل الدين، وآمر بكل فضائل الدين، فمن استطاع أن يلحق بركب الحفاظ فليلحق، بركب المجاهدين فليلحق، بركب العلماء فليلحق.﴿وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ﴾ كل العرف، المعروف.

﴿خُذِ ٱلْعَفْوَ وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ﴾ الطائفة التي تُعْرض وتستمر في الإعراض، هؤلاء الجهلة أعرض عنهم ﴿وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَٰهِلِينَ﴾ لذلك قيل أن هذه الآية نُسِخَت؛ لكن الراجح الذي عليه الطبري وغيره من المحققين أنها لم تُنسخ، أن لكل مقامٍ مقال، هناك مقام للإعراض، وهناك مقام للقتال بحسب الأحوال المحيطة.

﴿خُذِ ٱلْعَفْوَ﴾ تخيل عندما يُأمر النبي ﷺ في ختام هذه السورة بهذه الآية ﴿خُذِ ٱلْعَفْوَ وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ﴾ تداخل تحدي المشركين مع التعامل الأخلاقي! ﴿خُذِ ٱلْعَفْوَ وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَٰهِلِينَ﴾. لذلك أنت في تعاملك مع الناس لا تَشق عليهم؛ لأنك لو عاملتهم بالمحاقَّة والمداقَّة ستُخرج أسوأ ما فيهم ﴿إِن يَسْـَٔلْكُمُوهَا فَيُحْفِكُمْ تَبْخَلُواْ وَيُخْرِجْ أَضْغَٰنَكُمْ﴾[محمد ٣٧] لو كان ربنا يطلب منا المشقة، كلنا مطالبون بإخراج كل الدنيا كانت الأضغان ستخرج، كنا سنبخل. فربنا لم يعاملنا هكذا! لذلك في نفس السورة

﴿وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَٱلْأَغْلَٰلَ﴾[الأعراف ١٥٧] فكذلك الشريعة جاءت باليسر؛ لكن هناك مقامات عالية في الدين نأمر بالعرف والفارق بين أن تقبل ما تيسر من أخلاق الناس.

إذًا سياسة الناس أمر مهم، أن تفقه كيف تسوس الناس، كيف تعاملهم بنوع من السياسة حتى تُخرِج الطيب الذي بداخلهم، لا تُخرج الفساد الذي بداخلهم، وتقبل هذا الأمر وترضى به حتى يستمر، قد تُنَمِّيه وتُرَبِّيه –من معاني التربية النماء والزيادة–، فدورك كمربي أن تُنَمِّي هذه الفضائل، وألَّا تُخرج هذه الضغائن.

❖ ليس لك إلا الله:

﴿خُذِ ٱلْعَفْوَ وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَٰهِلِينَ﴾[الأعراف ١٩٩] أثناء تطبيق هذا الأمر ﴿وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ نَزْغٌ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ﴾[الأعراف ٢٠٠] ﴿وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ نَزْغٌ﴾ جاءت نكرة "نزغ"، إما لتعظيم هذا النزغ أو لأقل نزغ معين، أقل نزغ وأحقر نزغ تُسارع إلى الاستعاذة بالله، كل هذا التحدي الذي أنت قمت به للمشركين؛ **فلأنك عبدٌ لله**، ليس لقوتك فهنا ﴿وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ نَزْغٌ﴾ أنت ليس لك إلا الله، ﴿إِنَّ وَلِيِّۦَ ٱللَّهُ﴾[الأعراف ١٩٦] ﴿فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ﴾[الأعراف ٢٠٠] ﴿إِنَّمَآ أَتَّبِعُ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيَّ مِن رَّبِّي﴾[الأعراف ٢٠٣] قوة التحدي مع كمال الافتقار لله سبحانه وتعالى، **وعلى قدر افتقار الإنسان إلى ربه على قدر يقينه في النصرة .**

﴿وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ نَزْغٌ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ﴾[الأعراف ٢٠٠]:

- لو اخترنا أن هذه الآيات جاءت في دعوة المشركين في المرحلة المكية قبل أن يؤمر النبي ﷺ بالقتال، فقال بعضهم: أن هذه الآية جاءت في الغضب، وهذا مروي عن ابن زيد من التابعين أن النبي ﷺ قال والحديث مرسل لأنه من التابعين، عندما نزلت الآية ﴿خُذِ ٱلْعَفْوَ وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَٰهِلِينَ﴾[الأعراف ١٩٩] فقال النبي ﷺ: (فكيف الغضب؟) ماذا أفعل لو غضبت؟ فقال له الله –سبحانه وتعالى– "فإذا غضبت فاستعذ بالله من الشيطان الرجيم". فقالوا النزغ هنا ﴿وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ نَزْغٌ﴾[الأعراف ٢٠٠] النزغ هنا هو الغضب.
- وقال بعضهم: هو الذنب العابر، لو اخترنا أن هذا أثناء الدعوة المكية فيكون من معاني النزغ –والله أعلى وأعلم– أن الشيطان يريدك أن تتعجل خطوات في الطريق، مثلًا أن تجاهد في مكة، والجهاد

أمر محبوب إلى الله حقًا؛ لكن لم تؤمر به في مكة، فأحيانًا تتعجل خطوات الطريق، هذا يكون من نزغ الشيطان.

أحيانًا الشيطان لا يقول لك افعل معصية، ولكن يأتي لك بطاعة لكن هذا ليس وقتها فتتعجل بشيء؛ فهذا التعجل لا يحقق المأمول ويضيع الموجود، أنت حققت إنجازات على الأرض في الدعوة مثلًا في مكة، فيأتي الشيطان يريدك أن تنتقل إلى مرحلة معينة. تخيل مثلًا لو -ولم يحدث حقًا من النبي ﷺ- ، ماذا لو هاجر النبي ﷺ قبل الوقت الذي أُذن له فيه، وكان المشركون يتمنون أن يهاجر النبي ﷺ قبل أن يجد مكانًا ﴿وَإِن كَادُواْ لَيَسْتَفِزُّونَكَ مِنَ ٱلْأَرْضِ﴾ [الإسراء ٧٦] كانوا في محاولة استفزاز للنبي ﷺ ، أن يخرج من مكة قبل أن يأتي موعد الهجرة، فلما جاء موعد الهجرة وأيقنوا أن هناك مكانًا معينًا، سيأوي إليه النبي ﷺ في المدينة رفضوا و حاولوا قتله ﷺ. فأحيانًا نزغ الشيطان يأتي عن طاعة ليس هذا أوانها قد تؤدي إلى عبئ عليك، فتحتاج إلى فقه الإنسان في التعامل مع ربه سبحانه وتعالى.

يقول الله عزَّ وجلَّ لنبيه الكريم ﴿وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ نَزْغٌ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ إِنَّهُۥ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [الأعراف ٢٠٠] انظر إلى همة الشيطان، وكيف يحاول حتى مع الأنبياء، بالرغم من أن الله عزَّ وجلَّ عصمهم وحفظهم، لذلك قال النبي ﷺ: (ما من إنسان إلا و له قرينه من الجن ، قالوا: حتى أنت يا رسول الله؟ قال: نعم؛ ولكن الله أعانني عليه فأسلم)[٣] إما فأسلم الشيطان أو فأسلم أنا منه.

﴿وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ نَزْغٌ فَٱسْتَعِذْ﴾ بادر إلى الاستعاذة، والكلام عن الاستعاذة تكلمنا عنه بالتفصيل في أول سورة الفلق وسورة الناس، وأنه كمال الالتجاء لدرجة الالتصاق، و(عوذ اللحم) الملتصق بالعظم، أنت لا تستطيع أن تعيش بعيدًا عن حفظ الله لك، وأنت تلجأ إليه سبحانه وتعالى، لا تستطيع أن تبتعد عنه ﴿فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ إِنَّهُۥ﴾ تأكيد أنه سبحانه وتعالى ﴿سَمِيعٌ﴾ لأقوالهم، ﴿سَمِيعٌ﴾ لاستعاذتك، ﴿عَلِيمٌ﴾ بكيدهم، ﴿عَلِيمٌ﴾ بما في قلبك من اللجأ إلى الله سبحانه وتعالى.

﴿إِنَّهُۥ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ هذا بالنسبة للنبي ﷺ، ثم تأتي الآية لعموم المتقين كما جاءت ﴿إِنَّ وَلِيِّۦَ ٱللَّهُ﴾ [الأعراف ١٩٦] ثم جاءت ﴿وَهُوَ يَتَوَلَّى ٱلصَّٰلِحِينَ﴾، فكذلك جاءت هذه الآية لعموم المتقين ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْاْ إِذَا مَسَّهُمْ طَٰٓئِفٌ مِّنَ ٱلشَّيْطَٰنِ تَذَكَّرُواْ فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ * وَإِخْوَٰنُهُمْ يَمُدُّونَهُمْ فِى ٱلْغَىِّ ثُمَّ لَا يُقْصِرُونَ﴾ [الأعراف ٢٠١-٢٠٢].

[٣] [عن عبدالله بن مسعود]: ما مِنكُم مِن أحَدٍ، إلّا وقدْ وُكِّلَ به قَرِينُهُ مِنَ الجِنِّ قالوا: وإيّاكَ؟ يا رَسولَ اللهِ، قالَ: وإيّايَ، إلّا أنَّ اللَّهَ أعانَنِي عليه فأسْلَمَ، فلا يَأْمُرُنِي إلّا بخَيْرٍ. غيْرَ أنَّ في حَديثِ سُفْيانَ وقدْ وُكِّلَ به قَرِينُهُ مِنَ الجِنِّ وقَرِينُهُ مِنَ المَلائِكَةِ.
مسلم (ت ٢٦١)، صحيح مسلم ٢٨١٤ • [صحيح]

❖مواجهة المتقين لمس الشيطان:

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوۡاْ﴾[الأعراف ٢٠١] تأكيد أن هذا الأمر يحدث، محاولة الشيطان ومحاولة طواف الشيطان حول الإنسان، ليمس قلبه هذا أمر مؤكد ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوۡاْ﴾، وصفهم الله عزَّ وجلَّ وعرفهم بالتقوى، أي إن المتقين ليسوا بعيدين عن هذا المس، ليس معنى أن الإنسان متقي أنه لن يُواجه بمس الشيطان، وبالوقوع أحيانًا في فخ الشيطان، قد يقع في معصية، إذًا المتقي قد يسقط في معصية، ليس المحب مطالبًا بالعصمة؛ لكنه مطالب أن يتفادى تلك الوصمة.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوۡاْ﴾ جاء اسم موصول الذي يرد للتعريف، تخيل أنهم معروفون بالتقوى، أناس ساروا على التقوى زمنًا ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوۡاْ إِذَا مَسَّهُمۡ﴾ "إذا" هنا الزمنية، أي بمجرد، وأيضًا تأتي للتأكيد ليس "إن مسهم"، ﴿إِذَا مَسَّهُمۡ﴾ هذا الأمر يحدث حتمًا (كل بنى آدم خطَّاء)[٤].

﴿إِذَا مَسَّهُمۡ طَٰٓئِفٞ مِّنَ ٱلشَّيۡطَٰنِ﴾ ما الفارق إذًا؟ المتقي قد يقع في المعصية، ما الفارق بين المتقي و بين إخوان الشياطين إذًا؟ ! الفارق في هذه الكلمات "مسهم" و "طائف" و "تذكروا"، مس أنه بمجرد المس، المس أول شيء، أول مقاربة، أول ما يقارب الشيطان أول شيء المس، بمجرد المس ينتفض لا ينتظر حتى يتغلغل الشيطان، بمجرد المس. وهذا المس ليس سهمًا من سهام إبليس؛ لكن مجرد الطائف أنه يطوف ﴿طَٰٓئِفٞ مِّنَ ٱلشَّيۡطَٰنِ﴾، يقول ابن عاشور: إن الطواف من معانيه: الذي يدور حول البيت ينتظر الإذن، العربي كان ينزل يطوف حول الديار ينتظر أن يأذن له أهل هذه الديار، فكأن من معاني الطواف حول الكعبة، تطلب أن يأذن الله لك بالدخول فتسعى بعدها، أنت تطوف أولًا طالبًا من الله الفتح، ثم تسعى بعد ذلك بعد أن تشرب من ماء زمزم بعد الطواف فتسعى، وكأنك تطوف ثم تتضلع من الوحي، ثم تسعى لنصرة هذا الدين.

فهنا ﴿طَٰٓئِفٞ﴾ الذي يحاول أن يبحث عن ثغر ليدخل منه، فمن معانيها البحث، ومن معانيها الهمة، ومن معانيها الإحاطة التي ذُكِرت في أول السورة ﴿لَأَقۡعُدَنَّ لَهُمۡ صِرَٰطَكَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ * ثُمَّ لَأٓتِيَنَّهُم مِّنۢ بَيۡنِ أَيۡدِيهِمۡ وَمِنۡ خَلۡفِهِمۡ وَعَنۡ أَيۡمَٰنِهِمۡ وَعَن شَمَآئِلِهِمۡ﴾[الأعراف ١٦-١٧] أن الشيطان يحاول أن يبحث، من الإحاطة ، يبحث عن أي ثغر للدخول، فهي معركة!

---

[٤] [عن أنس بن مالك]: كلُّ بني آدمَ خطّاءٌ وخيرُ الخطّائينَ التوّابونَ.
الألباني (ت ١٤٢٠)، صحيح ابن ماجه ٣٤٤٧ • حسن • أخرجه الترمذي (٢٤٩٩)، وأحمد (١٣٠٤٩) باختلاف يسير، وابن ماجه (٤٢٥١) واللفظ له.

فهذا الطائف، يدور قبل أن يغرس سهمه فى القلب ﴿إِذَا مَسَّهُمْ طَٰٓئِفٌ مِّنَ ٱلشَّيْطَٰنِ تَذَكَّرُواْ﴾[الأعراف ٢٠١]، جواب الشرط ﴿تَذَكَّرُوا﴾ مباشرة، إذا مسه تذكَّر. ﴿طَٰٓئِفٌ﴾ أي لازالت أحلام يقظة، بمعنى مثلًا قبل أن تنام، الشيطان يعرض عليك قبل النوم أشياء وفتن رأيتها بالنهار، أو يحاول الشيطان أن يفتنك ويزين لك صورة المعصية ويزين لك الفاحشة، وهو لازال في هذه المحاولات، يطوف ويبحث ويدور ليغرس هذه المعصية في قلبك، فتتألم لنزعها بعد ذلك. فقبل أن يغرس الشيطان سهمه في القلب ينتفض الإنسان مباشرة، يقوم... يتذكر...

إذًا الطائف: أي الشيطان يحاول يطوف ويبحث؛ يأتي لك بصورة فلانة، فإن لم تجدِ نفعا، يأتي لك بصورة النقود، فإن لم تنفع، يأتي بصورة المركز الدنيوى...، وهكذا فهو يبحث عن نقاط ضعفك ﴿إِنَّمَا ٱسْتَزَلَّهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ بِبَعْضِ مَا كَسَبُواْ﴾[آل عمران ١٥٥] أي أوقعهم فى الزلل. والزلل هي الصخرة المهتزة الضعيفة التي لو وضع الإنسان قدمه عليها تزل القدم.

فكذلك هنا الشيطان يظل يطوف ويبحث، الإنسان... أو المتقي وليس الإنسان، المتقي ينتفض فى هذه اللحظات، يقوم ويتوضأ ويجأر إلى الله ويستعيذ بالله من الشيطان الرجيم، فهناك من يخاف من الله سبحانه وتعالى ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِٱلْغَيْبِ﴾[الملك ١٢].

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَواْ إِذَا مَسَّهُمْ﴾[الأعراف ٢٠١] بمجرد المس ولازال طائفًا ﴿طَٰٓئِفٌ مِّنَ ٱلشَّيْطَٰنِ تَذَكَّرُواْ﴾ هنا فى نقطتين فى كلمة ﴿تَذَكَّرُوا﴾:

- أول شيء: أن الله سبحانه وتعالى لم يقل: ذكروا، بل قال ﴿تَذَكَّرُوا﴾.
- النقطة الثانية: ﴿تَذَكَّرُوا۟﴾ ماذا؟ هنا المفعول محذوف. غير سورة آل عمران؛ لأنها كانت بعد الفاحشة: ﴿ذَكَرُواْ ٱللَّهَ فَٱسْتَغْفَرُواْ لِذُنُوبِهِمْ﴾[آل عمران ١٣٥] وجاء بعد ﴿ذَكَرُوا﴾ لفظ الجلالة ﴿ٱللَّهَ﴾. أما هنا ﴿تَذَكَّرُوا﴾[الأعراف ٢٠١]؛ لأنهم هنا لازالوا فى معركة مع هذا الطائف.

﴿تَذَكَّرُوا﴾ تَذكَّر غير ذَكَر؛ فتَذكَّر فيها تَكلُّف على وزن تَفَعّل، فيها تكلف وبذل مشقة، فكأن الإنسان يجاهد هواه كلحظات فك العقد الشيطانية من على رقبة الإنسان أو قفا الإنسان وهو يقوم الليل، (يعقد الشيطان على قافية أحدكم ثلاثة عقد، يضرب على كل عقدة عليك ليل طويل فارقد، فإذا قام

الإنسان وذكر الله انحلت عقدة...)[٥] أي من الممكن أن يقوم إنسان ويذكر الله ثم بعد ذلك ينام! وأنتم تعرفون ذلك، لا شك تعرفون! هناك عقدتين وعقدة، فإن فك عقدة، فمازال هناك عقدتان. من الممكن أن يضبط المنبه قبل الفجر بساعة -الساعة ٤ فجرًا- ويقوم ويقول: (الحمد لله الذين أحياني بعد ما أماتني..)[٦] ويفكر: بأي سورة سأصلي...، ثم يُفاجأ أن الظهر يأذن، وليس الفجر!! لماذا؟ لأنه لم يُكمل، كان عليه أن يقوم ويتوضأ (فإذا توضأ انحلت العقدة الثانية) أي من الممكن أن يقوم الإنسان ويذكر الله ويتوضأ ثم يستيقظ على صلاة الظهر؟ ممكن؟ ليس فقط ممكنًا بل كثير، تحدث كثيرًا، على الأريكة... نعم تلك الأريكة التي نجدها في ركن ما من البيت...، تلك الأريكة مثل شجرة سيدنا آدم، يقول لك: اقعد قليلًا على الأريكة تستريح... إن لبدنك عليك حقًا، ولكنك مطالب أن تكمل للنهاية، تفك كل العقد، ذكر الله، الوضوء، الصلاة.فكذلك هنا ﴿تَذَكَّرُوا﴾ أنت في محاربة هذا الطائف الذي يريد أن يغرس سهمه في القلب.

لذلك جاء المفعول محذوف يفيد العموم ﴿تَذَكَّرُوا﴾؛ تَذَكَّر الجنة، تَذَكَّر النار، لحظة الوقوف بين يدى الله، محاسبة الله عزَّ وجلَّ لعبده على النعم، يتذكَّر مفتوحة. فتفيد إما العموم، أو كل واحد يتذكر شيئًا خاصًا به، كل واحد يعلم ما الذي يُرجعه. ﴿تَذَكَّرُوا﴾ تَكَلَّف وجاهد حتى يصرف هذا الطائف عن قلبه، والموضوع مفتوح... أخذ يحاول ويجاهد نفسه حتى استطاع منازعة الهوى.

❖ نتيجة التذكر:

في هذه اللحظات يقول ربنا سبحانه وتعالى أن الذى يتذكَّر حقائق الدين في هذه اللحظات، ويرى المعصية على حقيقتها ﴿فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ﴾. إذا هنا الفجائية غير إذا الأولى، الأولى شرطية زمنية، هنا فجائية. ﴿فَإِذَا﴾ أى وفجأة يصبح مبصرًا، أي أنه كان أعمى، أي أنه لما كان يلتذ بالمعصية ويفكر بها كان أعمى، أي لحظات التلذذ بأحلام اليقظة تكون أعمى فيها، أنت مُغمى على عينيك، تسير في اتجاه الهاوية، بمجرد تذكر النار أنت ترفع هذا الغطاء فتفاجأ أن النار أمامك فتبصر ﴿فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ﴾،

[٥] [عن أبي هريرة]: يَعْقِدُ الشَّيْطانُ على قافِيَةِ رَأْسِ أَحَدِكُمْ إذا هو نامَ ثَلاثَ عُقَدٍ يَضْرِبُ كُلَّ عُقْدَةٍ عَلَيْكَ لَيْلٌ طَوِيلٌ، فارْقُدْ فإنِ اسْتَيْقَظَ فَذَكَرَ اللَّهَ، انْحَلَّتْ عُقْدَةٌ، فإنْ تَوَضَّأَ انْحَلَّتْ عُقْدَةٌ، فإنْ صَلّى انْحَلَّتْ عُقْدَةٌ، فأصْبَحَ نَشِيطًا طَيِّبَ النَّفْسِ وإلّا أصْبَحَ خَبِيثَ النَّفْسِ كَسْلانَ.
البخاري (ت ٢٥٦)، صحيح البخاري ١١٤٢ • [صحيح] • أخرجه البخاري (١١٤٢)، ومسلم (٧٧٦)

[٦] [عن حذيفة بن اليمان]: كان النَّبيُّ ﷺ قَمِنًا أنْ يقولَ: إذا أخَذَ مَضجَعَه مِن اللَّيلِ وَضَعَ يَدَه اليُمْنى تحتَ خَدِّه الأيمَنِ، ثم يقولُ: اللَّهُمَّ باسْمِكَ أحْيا، وباسْمِكَ أموتُ، فإذا استَيقَظَ مِن اللَّيلِ قال: الحَمدُ للهِ الذي أحْياني بعدَما أماتَني وإليه النُّشورُ.
شعيب الأرنؤوط (ت ١٤٣٨)، تخريج المسند ٢٣٢٨٦ • صحيح • أخرجه البخاري (٦٣١٢)، وأبو داود (٥٠٤٩)، والترمذي (٣٤١٧)، والنسائي في «السنن الكبرى» (١٠٦٩٣)، وابن ماجه (٣٨٨٠)، وأحمد (٢٣٢٨٦) واللفظ له

هم أنفسهم، الذي كان أعمى الآن يصبح مبصرًا. ﴿فَإِذَا هُم﴾ هؤلاء المتقين برحمةٍ من الله عزَّ وجلَّ وفضل ينقذهم الله عزَّ وجلَّ بالتَّذكُّر ﴿تَذَكَّرُواْ فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ﴾.

فإذًا هذه الآية تفيد في معركة الشيطان الأولى في أول سورة الأعراف، وكيف أن الحل مع ﴿فَدَلَّٰهُمَا بِغُرُورٍ﴾[الأعراف ٢٢] نحن قلنا هنا أن التَدْلية وفيها التدرج مثل الطائف بالضبط ﴿فَدَلَّٰهُمَا بِغُرُورٍ﴾ أشبه بالطائف الذي يمشي... فالحل ﴿تَذَكَّرُواْ فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ﴾[الأعراف ٢٠١] يتحول إلى إنسان مبصر يرى المعصية على حقيقتها وقدرها عند الله، لا يُفتَن ﴿فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ﴾هذا صنف المتقين.

أما الصنف الثاني ﴿وَإِخْوَٰنُهُمْ﴾[الأعراف ٢٠٢] الضمير "هم" هنا لو حذفناه ووضعنا اسمًا ظاهرًا، الجمهور اتفقوا على أنه وإخوان الشياطين، وإخوان الشياطين، ﴿يَمُدُّونَهُمْ﴾ .. على من يعود الضمير "هم" هنا؟ دائمًا حين تحاول أن تفهم الآية وفيها ضمائر كثيرة، فك الضمائر. فمعنى الآيه على قول الجمهور: وإخوان الشياطين يمدهم...، يمدُوا الإخوانُ الشياطين، إذًا فاعل ﴿يَمُدُّونَهُمْ﴾ واو الفاعل تعود على الشياطين و"هم" أي إخوان الشياطين أي المشركين أو العصاة الذين اختاروا أن يكونوا إخوة للشياطين؛ هذا قول.

هناك شخص الشيطان لازال يطوف حتى يدخل، فاتخذه عدوا قال له: لن تنزل عندى! كان الشيطان يريد أن ينزل في بيته...، وهناك آخر يقول للشيطان مرحبًا حبيبي، الشيطان ليس فقط حبيبه بل أخوه!! الشيطان يهم بأن يطوف، فيقول له يا أخي هل ستضيع وقتك في أن تطوف؟ تفضل البيت بيتك، عيب عليك ألم أعطك أنا المفتاح وأقول لك كيف تصل إلي؟! ﴿يَمُدُّونَهُمْ﴾.

فالأول بمجرد أن يهم الشيطان بأن يمسه قال له: ارجع! أستعيذ بالله من الشيطان الرجيم؛ أما الآخر حين يعطيه الشيطان شيئًا يقول له هل هذا أقصى ما عندك؟ يا أخي لماذا لست محدَّثًا ((updated))؟ أين هو المدد؟ نريد أعلى من هذا!

﴿يَمُدُّونَهُمْ﴾ المد غالبًا يأتي معه حرف جر. كان متوقع مثلًا يمدونهم بالغيِّ...، ﴿وَأَمْدَدْنَٰهُم بِفَٰكِهَةٍ﴾[الطور ٢٢]... يريد مددًا بكذا. فهنا ﴿يَمُدُّونَهُمْ﴾[الأعراف ٢٠٢] بماذا؟ ﴿فِي ٱلْغَيِّ﴾؛ لأنهم لا يخرجون من الغيّ أصلًا، هو في مستنقع الغي –والعياذ بالله–، لا يخرج منها، اختار أن يكون أخًا للشيطان، لم يتخذه عدوًا كما أمرنا الله في أول سورة الأعراف، أصبح أخًا له، ينتظر المدد منه! كما قلنا مسألة تدرج المجتمعات في الفحشاء...،أنه أمر غير متناهي، حين تكلمنا –لو تتذكرون– في مسألة ﴿ثُمَّ بَعَثْنَا﴾[الأعراف ١٠٣] وتكلمنا فيما بعد الحداثة، وكيف أن المجتمعات تصل إلى مرحلة من الانهيار

ونزول أسفل السافلين، هذا القاع غير منتهى. فهو ينتظر مددًا من المعاصي. ﴿وَإِخْوَٰنُهُمْ يَمُدُّونَهُمْ﴾[الأعراف ٢٠٢] اختار أن يكون أخًا للشيطان فى الغي.

﴿ثُمَّ لَا يُقْصِرُونَ﴾[الأعراف ٢٠٢] أي هؤلاء -وهذا قول بعض أهل العلم- أي هؤلاء المشركون ﴿لَا يُقْصِرُونَ﴾ أي لا يستطيعون التوقف، وفي الحديث: (يا باغيَ الشر أقصر)[٧] المنادي فى رمضان -أسأل الله أن يبلغنا رمضان-، وأقصر أي توقف. المشرك الذي اختار أن يكون أخًا للشيطان لا يستطيع التوقف، شبهه بعض أهل العلم بالسقوط من على الجبل؛ لا يستطيع أن يتوقف، لا يستطيع أن يُقصر، لا يستطيع أن يسحب ال handbrake -فرامل اليد- لا يستطيع أن يقف، ﴿ثُمَّ لَا يُقْصِرُونَ﴾.

وبعضهم قال: ﴿ ثُمَّ لَا يُقْصِرُونَ ﴾ أي لا تتوقف الشياطين عن إمدادهم. أي الشياطين دائمًا عندها أفكار جديدة. واختار الطبري الاثنين أو مال ونقل القول عن ابن عباس: لا يُقصر الشيطان عن المدد، ولا يُقصر المشرك عن أخذ هذا المدد منه. هناك حالة من عدم السآمة بينهم كما أن الملائكة فى آخر السورة لا تمل من العبادة، وبصيغة المضارع ﴿وَيُسَبِّحُونَهُۥ وَلَهُۥ يَسْجُدُونَ﴾[الأعراف ٢٠٦].

﴿وَإِخْوَٰنُهُمْ يَمُدُّونَهُمْ فِى ٱلْغَىِّ ثُمَّ لَا يُقْصِرُونَ﴾[الأعراف ٢٠٢] من يصل لمرحلة أن يكون أخًا للشيطان، لا يستطيع أن ينزع نفسه من المعصية -والعياذ بالله- ﴿لَا يُقْصِرُونَ﴾.

❖ من قَبل القرآن كبصائر هُدي:

﴿وَإِذَا لَمْ تَأْتِهِم بِـَٔايَةٍ قَالُوا۟ لَوْلَا ٱجْتَبَيْتَهَا﴾[الأعراف ٢٠٣] طوال السورة ﴿وَإِذَا لَمْ تَأْتِهِم بِـَٔايَةٍ قَالُوا۟﴾ قال بعض أهل العلم: وإذا لم تأتهم بالآية التى طلبوها -وهم يطلبون آيات حسية-، أو إذا لم تأتهم بآية حسية ظاهرة قالوا لك ﴿لَوْلَا ٱجْتَبَيْتَهَا﴾ "لولا" هنا بمعنى هلَّا، ليست للشرط هنا؛ بل "هلَّا اجتبيتها" أي اقتراح، اجتبيتها إما بمعنى اخْتَلَقْتَها من عندك، أو أَلْحَحتَ على ربَّك حتى يعطيكَ ما نريد، فكأنَّك تجتبي هذه الآية منه، فإمَّا بمعنى تختلِقها أو تقترحها على الله، القولين الموجودين في اجتبيتها: الاختلاق والاقتراح.

﴿وَإِذَا لَمْ تَأْتِهِم بِـَٔايَةٍ قَالُوا۟ لَوْلَا ٱجْتَبَيْتَهَا﴾؛ هلَّا اقترحتها، أو هلَّا اختلقتها من عند نفسك. في الحالتين أنا عبد؛ ﴿قُلْ إِنَّمَآ أَتَّبِعُ مَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ مِن رَّبِّى﴾ ... وفي سورة يونس ﴿ٱئْتِ بِقُرْءَانٍ غَيْرِ هَٰذَآ أَوْ بَدِّلْهُ ۚ قُلْ مَا

[٧] [عن عتبة بن فرقد السلمي]: تُفتَحُ فيهِ أبوابُ الجنَّةِ، وتُغلَّقُ فيهِ أبوابُ النارِ، وتُغَلُّ فيهِ الشَّياطينُ، وينادي منادٍ كلَّ ليلةٍ: يا باغيَ الخيرِ هَلُمَّ، ويا باغيَ الشَّرِّ أقصِرْ.
الألباني (ت ١٤٢٠)، صحيح النسائي ٢١٠٦ • صحيح [لغيره] • أخرجه النسائي (٢١٠٧) واللفظ له، والطبراني (١٣٢/١٧) (٣٢٥)، وأبو نعيم في «حلية الأولياء» (٣٠٦/٨)

يَكُونُ لِيٓ أَنۡ أُبَدِّلَهُۥ مِن تِلۡقَآيِ نَفۡسِيٓۖ إِنۡ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَيَّ﴾[يونس ١٥] هذا المطلب المتكرِّر، يريدون معجزة أخرى أو آية أخرى غير القرآن. ﴿قُلۡ إِنَّمَآ أَتَّبِعُ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيَّ مِن رَّبِّيۚ﴾ انظر الفارق ما بين أول السورة ﴿فَلَا يَكُن فِي صَدۡرِكَ حَرَجٞ مِّنۡهُ﴾[الأعراف ٢]، وهنا قمَّة الجهر بالقرآن والوضوح: أنا أتَّبع ما يوحى إليَّ من ربي، هذا الذي أنتم تُعرضون عنه، هذا الذي أنتم تبحثون عن آية غيره، هذا بصائر وليس بصيرة واحدة، ﴿هَٰذَا بَصَآئِرُ مِن رَّبِّكُمۡ وَهُدٗى وَرَحۡمَةٞ لِّقَوۡمٖ يُؤۡمِنُونَ﴾[الأعراف ٢٠٣].

هذه البصائر مَن قَبِلها كبصائر قادته إلى الهدى، ومن سار على الهدى وصل إلى الرحمة ﴿هَٰذَا بَصَآئِرُ مِن رَّبِّكُمۡ وَهُدٗى وَرَحۡمَةٞ﴾. لذلك الآية التي تليها: إذا أردتَ أن تصل إلى النهاية التي هي الرحمة ابدأ بالاستماع إلى القرآن، ﴿وَإِذَا قُرِئَ ٱلۡقُرۡءَانُ فَٱسۡتَمِعُواْ لَهُۥ وَأَنصِتُواْ لَعَلَّكُمۡ تُرۡحَمُونَ﴾[الأعراف ٢٠٤]؛ إذًا هو: بصائر، هدى، رحمة. البصائر: من قَبِل القرآن كبصائر هُدي، ومن هُدي نال الرحمة من الله –سبحانه وتعالى–.

﴿هَٰذَا بَصَآئِرُ مِن رَّبِّكُمۡ﴾، بصيرة: رؤية الشيء على حقيقته، الطريق الذي يوصِّلك لبُغيَتك. لذلك كانوا يقولون: الرَّميَّة؛ الفريسة التي تضربها بسهمك ولا تستطيع أن تصل إليها، فتتبَّع مواضع الدم، يسمُّون مواضع الدم "البصيرة"، تقودُك إلى بُغيتك، فالبصائر: الشيء الذي يوصِّلك لبُغيَتك. ﴿هَٰذَا بَصَآئِرُ مِن رَّبِّكُمۡ﴾، فإن لم تكن بُغيَتك رضا الله فلن ترَى هذه البصائر، وستقول أين هذه البصائر؟ لأنك أصلًا تسير في طريق غلط.

﴿هَٰذَا بَصَآئِرُ﴾ هنا انظر ما بين أنه يمكن أن يكون في صدرك حرج، وأن تقول عن القرآن أنه مليء بالبصائر ﴿هَٰذَا بَصَآئِرُ مِن رَّبِّكُمۡ﴾، إذًا فمن يقبل هذه البصائر يقبلها، ومن يُعرِض عن القرآن لن ينفعه شيء، كما في سورة القمر تكرار ﴿وَلَقَدۡ يَسَّرۡنَا ٱلۡقُرۡءَانَ لِلذِّكۡرِ فَهَلۡ مِن مُّدَّكِرٖ﴾[القمر ١٧/٢٢/٣٢/٤٠] الذي لم يستفِد من القرآن لن يستفيد من انشقاق القمر والله لو مهما فعلت له! ﴿وَنُقَلِّبُ أَفۡـِٔدَتَهُمۡ وَأَبۡصَٰرَهُمۡ كَمَا لَمۡ يُؤۡمِنُواْ بِهِۦٓ أَوَّلَ مَرَّةٖ﴾[الأنعام ١١٠]، لكن الذي أعرض عن القرآن لن تنفعه أيُّ آية. ﴿هَٰذَا بَصَآئِرُ مِن رَّبِّكُمۡ وَهُدٗى وَرَحۡمَةٞ﴾[الأعراف ٢٠٣] كلها مُنكَّرة للتعظيم، رحمة لكن لمن؟ ﴿لِّقَوۡمٖ يُؤۡمِنُونَ﴾ لقوم يريدون ذلك، ويبحثون عنه.

الختام إذًا: كأنَّك أعرضتَ عن المشركين، تخيَّل معي المشهد: أنت تناقش وتتحدَّى المشركين، وفي هذه اللحظات قُرئ القرآن فأعرضتَ عن المشركين، واستمعتَ للقرآن وأنصتَّ له بُغيَة الوصول للرحمات، ﴿وَإِذَا قُرِئَ ٱلۡقُرۡءَانُ فَٱسۡتَمِعُواْ لَهُۥ﴾[الأعراف ٢٠٤].

أحيانًا السياق القرآني، وحقًا هذا ليس المعنى "أن كلمة ﴿وَإِذَا قُرِئَ ٱلْقُرْءَانُ﴾ أي إذا قُرئ القرآن أثناء محاجَّة المشركين" ليس هذا المعنى، لكن أقصد أن القرآن يجعلك تعيش في سياق معيَّن، أنهم لن يؤثِّروا عليك –حتى لا يؤثِّروا عليك–، انظر إلى نقاش إبراهيم عليه السلام ومحاجَّة إبرهيم عليه السلام مع قومه في سورة الشعراء، الشعراء هم الخطباء، الشعر الذي هو ضدّ (الفرقان) السورة التي قبلها، والتي قبلها أيضًا سورة (النور)، انظر لهذا الشعر، وهو يحاجّ هؤلاء في سورة الشعراء، ثم يقول لهم وهو يتكلّم معهم: ﴿فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِّىٓ إِلَّا رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ * ٱلَّذِى خَلَقَنِى فَهُوَ يَهْدِينِ * وَٱلَّذِى هُوَ يُطْعِمُنِى وَيَسْقِينِ * وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ * وَٱلَّذِى يُمِيتُنِى ثُمَّ يُحْيِينِ * وَٱلَّذِىٓ أَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لِى خَطِيٓـَٔتِى يَوْمَ ٱلدِّينِ﴾[الشعراء ٧٧-٨٢]، وكأنَّه نسي النقاش معهم وتوجَّه إلى ربه: ﴿رَبِّ هَبْ لِى حُكْمًا وَأَلْحِقْنِى بِٱلصَّٰلِحِينَ﴾[الشعراء ٨٣]، وأخذ يدعو ربنا، تركهم، إنَّ هذه الحالة بينك وبين الله، لا تجعل أحدًا من الناس يؤثر عليك، أبدًا، بل هذه الحالة هي سرُّ قوتك، ﴿أَصَلَوٰتُكَ تَأْمُرُكَ﴾[هود ٨٧]؟ هذه الحالة هي سرّ قوتك.

﴿وَإِذَا قُرِئَ ٱلْقُرْءَانُ فَٱسْتَمِعُوا۟﴾[الأعراف ٢٠٤] كيف نصل إلى هذه الرحمات؟ كيف نصل إلى هذه البصائر؟ ابدأ بالاستماع، الاستماع والإنصات علامة على تفريغ القلب من كلِّ شيءٍ ما عدا القرآن، فأصبح فؤادك فارغًا إلا من القرآن، استماع وإنصات، تستمع وتُنصت، أي أنت تتكلَّف تركّز وتُنصت لأنك تتلقَّى الآن البصائر. العجيب أنَّ المشركين لما أرادوا أن يَنْهَوا أتباعهم عن سماع القرآن لم يقولوا: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ "لا تستمعوا لهذا القرآن"، لا،لكن قالوا ﴿لَا تَسْمَعُوا۟ لِهَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ﴾[فصلت ٢٦] فهم يخافون حتى من مجرَّد السماع، هم يخافون من السَّماع العابر للقرآن، لم يقل "لا تستمعوا لهذا القرآن" فكأن الإشارة: لو مررتُم بمجلس يقرأ فيه القرآن فضعوا أصابعكم في آذانكم واسْتَغشُوا ثيابكم حتى لا تتأثروا بالقرآن. ﴿وَإِذَا قُرِئَ ٱلْقُرْءَانُ﴾[الأعراف ٢٠٤]، لكن نحن مُطالبون بالاستماع والإنصات، أثر مروي عن مجاهد في سورة (ق): "ألَّا تُحدِّث نفسك بغير القرآن"، ﴿أَلْقَى ٱلسَّمْعَ﴾[ق ٣٧] تُلقي السمع، عند إلقاء السمع فأنت في حالة من الخلوة بينك وبين كتاب الله.

❖طريق البعد عن الغفلة:

﴿وَإِذَا قُرِئَ ٱلْقُرْءَانُ فَٱسْتَمِعُوا۟ لَهُۥ وَأَنصِتُوا۟﴾[الأعراف ٢٠٤] حتى تنال هذه الرحمات ﴿لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ * وَٱذْكُر رَّبَّكَ﴾[الأعراف ٢٠٤-٢٠٥] هذا أثر القرآن، لذلك الطبري اختار قول عجيب بعض الشيء وحتى ابن كثير أنكره، واختاره قبله ابن زيد من تابعي التابعين، قال: ﴿وَإِذَا قُرِئَ ٱلْقُرْءَانُ فَٱسْتَمِعُوا۟ لَهُۥ وَأَنصِتُوا۟﴾[الأعراف ٢٠٤] جمهور المفسّرين أصلًا على أن ﴿وَإِذَا قُرِئَ ٱلْقُرْءَانُ﴾ هذه في الصلاة، هذه

الآية في أسباب نزولها أنهم كانوا يتكلَّمون في الصلاة فنزلت للإنصات للإمام في الصلاة أو في الخُطبة على قول وإن كانت السورة مكية، فلذلك الإمام البغوي اعترض قال كيف تكون في الخطبة؟ والخطبة في المدينة! أيًا كان، بعضهم قال: الوجوب في الصلاة، واستحبابًا خارج الصلاة.

الطبري قال: ﴿وَٱذۡكُر رَّبَّكَ فِي نَفۡسِكَ﴾[الأعراف ٢٠٥] أي في الصلاة أثناء سماع القرآن، يعني كأن الذي يتلقى القرآن يلهج بذكر الله، هنا الأثر الحقيقي لتلقّي القرآن، مِقياس تلقي القرآن، ﴿وَٱلَّذِينَ يُمَسِّكُونَ بِٱلۡكِتَٰبِ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ﴾[الأعراف ١٧٠]هناك مقياس لدرجة تحقُّقكَ هل تلقَّيتَ القرآن حقيقةً؟ هل أنت تتلقَّى حقائق القرآن أم هو مجرَّد ترف ذهني بالنسبة إليك؟ هل ذِكر الله أمر أصبح كالزَّاد لك؟ إقامة الصلاة؟ هذا أثر القرآن الحقيقي ﴿وَٱذۡكُر رَّبَّكَ فِي نَفۡسِكَ تَضَرُّعًا وَخِيفَةً﴾[الأعراف ٢٠٥] هذه مشاعر يحييها القرآن، التضرُّع والخوف، ﴿تَضَرُّعًا وَخِيفَةً﴾ ﴿وَدُونَ ٱلۡجَهۡرِ﴾ لستَ منشغلًا بالناس ﴿وَدُونَ ٱلۡجَهۡرِ مِنَ ٱلۡقَوۡلِ﴾ طول الزمان ﴿بِٱلۡغُدُوِّ وَٱلۡأٓصَالِ﴾ حتى لا تكن من الغافلين، هذا هو طريق البعد عن الغافلين.

نحن قلنا ﴿وَلَقَدۡ ذَرَأۡنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا...﴾ آخرها ﴿ٱلۡغَٰفِلُونَ﴾[الأعراف ١٧٩]، وجاءت بعدها ﴿وَلِلَّهِ ٱلۡأَسۡمَآءُ ٱلۡحُسۡنَىٰ فَٱدۡعُوهُ بِهَا﴾[الأعراف ١٨٠] إن طريق البعد عن الغفلة دعاء الله بأسمائه الحسنى، هنا أيضًا طريق البعد عن الغفلة: ذكر الله سبحانه وتعالى. ﴿وَٱذۡكُر رَّبَّكَ فِي نَفۡسِكَ تَضَرُّعًا وَخِيفَةً وَدُونَ ٱلۡجَهۡرِ مِنَ ٱلۡقَوۡلِ بِٱلۡغُدُوِّ وَٱلۡأٓصَالِ﴾[الأعراف ٢٠٥]؛ صباحًا ومساءً، بعضهم قال: صلاة الصبح وصلاة العصر، أو أذكار الصباح والمساء، الشاهد: طول الذكر والمداومة، عكس ﴿أَمۡ أَنتُمۡ صَٰمِتُونَ﴾[الأعراف ١٩٣]الذي قلناه.

﴿وَإِذَا قُرِئَ ٱلۡقُرۡءَانُ﴾[الأعراف ٢٠٤] عكس ما في البداية تمامًا ﴿فَلَا يَكُن فِي صَدۡرِكَ حَرَجٞ مِّنۡهُ﴾ [الأعراف ٢]، اهتمامك بالقرآن وإقبالك على تلقّي القرآن وتفاعلك مع القرآن ينفي هذا الحَرَج الذي في صدرك تجاه القرآن. ﴿وَإِذَا قُرِئَ ٱلۡقُرۡءَانُ فَٱسۡتَمِعُواْ لَهُۥ وَأَنصِتُواْ﴾[الأعراف ٢٠٤] ليس فقط استماع وإنما استماع مع إنصات، نحن أُمرنا بالاستماع والإنصات والتلاوة والترتيل مع القرآن، أي كل الجوارح مع القرآن، التدبر ﴿أَمۡ عَلَىٰ قُلُوبٍ﴾ [محمد ٢٤] القلب يفعل مع القرآن، تحاول أن تشهد القرآن.

﴿وَٱذۡكُر رَّبَّكَ فِي نَفۡسِكَ تَضَرُّعًا وَخِيفَةً وَدُونَ ٱلۡجَهۡرِ مِنَ ٱلۡقَوۡلِ بِٱلۡغُدُوِّ وَٱلۡأٓصَالِ﴾[الأعراف ٢٠٥] وكأنَّ هذه الحالة؛ حالة قراءة القرآن والاستماع والإنصات والذكر، هذه الحالة التي تجعلك مبصرًا ﴿فَإِذَا هُم مُّبۡصِرُونَ﴾[الأعراف ٢٠١] على قدر حفاظك على هذه الأشياء على قدر إبصارك للحقائق. أي أن

الدين ليس معلومات جافَّة، لذلك الختام: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ لَا يَسۡتَكۡبِرُونَ عَنۡ عِبَادَتِهِۦ وَيُسَبِّحُونَهُۥ وَلَهُۥ يَسۡجُدُونَ ۩﴾[الأعراف ٢٠٦] لم يكتفِ بعدم الاستكبار؛ هناك تسبيح، هناك سجود، هذا هو الزَّاد.

المطلب الذي في سورة الأعراف مطلب عظيم؛ مواجهة العالَم بالقرآن، وألَّا يكن في صدرك حرج، ومواجهة الفراعنة والملأ والسَّحرة، مطلب عظيم، كيف تستطيعه بدون زاد؟ بدون تسبيح؟ بدون سجود؟ بدون وحي؟ كيف تستطيع ذلك؟ لن تستطيع، أنت تنزل المعركة بغير سلاح مهما كنت قويًا! بل أوَّل ما يجني على الفتى اجتهاده..

فالختام: القرآن، الذكر، التسبيح،السجود، هذا زاد المعركة التي رأيتها أنت طوال هذه السورة، كل المعارك من لدن آدم، ثم نوح، ثم هود، ثم صالح، ثم شعيب ولوط، إلى موسى -عليهم السلام-، كل هذه المعارك هذا هو زادُها، إذا أردت أن تسير في الرَّكب فخذ سلاحك أولًا؛ استمع، أنصت، اذكر، سبّح، اسجد ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ لَا يَسۡتَكۡبِرُونَ عَنۡ عِبَادَتِهِۦ﴾[الأعراف ٢٠٦] وبصيغة المضارع، ﴿وَيُسَبِّحُونَهُۥ﴾ ﴿وَلَهُۥ﴾ تقديم (لهُ) -للتخصيص- أي له وحده فقط، ﴿وَلَهُۥ يَسۡجُدُونَ﴾.

مشهد في أوَّل السورة أنت في صدرك حَرَج، ثم تسجد متأثرًا بالقرآن! كيف ينقلك القرآن هذه النقلة؟! انظرلأول السورة ما زلت تُصارع تُكابد، وتتلَّقى هذه الحقائق، الآن أنت في ختام السورة تسجد متأثِّرًا مُوقِنًا كسَجْدة السَّحرة! كهذه السجدة التي سجدها السحرة لما رأوا الآيات.. فأنت بعد كل هذه الآيات آن أوان سجودك، أن تسجد، وكأنك قرَّرت أن تسير في هذا الطريق مهما كانت العَقَبات، ومهما كانت التهديدات، ومهما كانت الصِّعاب، سجُودك إقرارك وموافقتك على هذا الطريق راغبًا راضيًا، كأنَّك تُلْقى ساجدًا كما أُلقي السَّحرة تأثُّرًا بهذه الآيات..

أسأل الله -عزَّ وجلَّ- أن يستعملنا، وأن يوفِّقنا، وأن يهدينا، وأن يهدي بنا، وأن يجعلنا سببًا لمن اهتدى. اللهم اجعلنا من أهل القرآن الذين هم أهلك وخاصَّتك. اللهم وفِّقنا لفعل كل ما تحب وترضى، اللهم إنَّا نسألك العزيمة على الرُّشد والثَّبات في الأمر، اللهم إنَّا نسألك العزيمة على الرُّشد، اللهم اجعلنا من أهل القرآن الذين هم أهلك وخاصَّتك، اللهم اجعلنا من أهل القرآن الذين هم أهلك وخاصَّتك، اللهم إنا نسألك حفظ القرآن وفهم القرآن والعمل بالقرآن وفق كلِّ ما تحبُّ وترضى.

أقول قولي هذا وأستغفر الله لي ولكم. سبحانك اللهم وبحمدك، أشهد أن لا إله إلا أنت، أستغفرك وأتوب إليك.